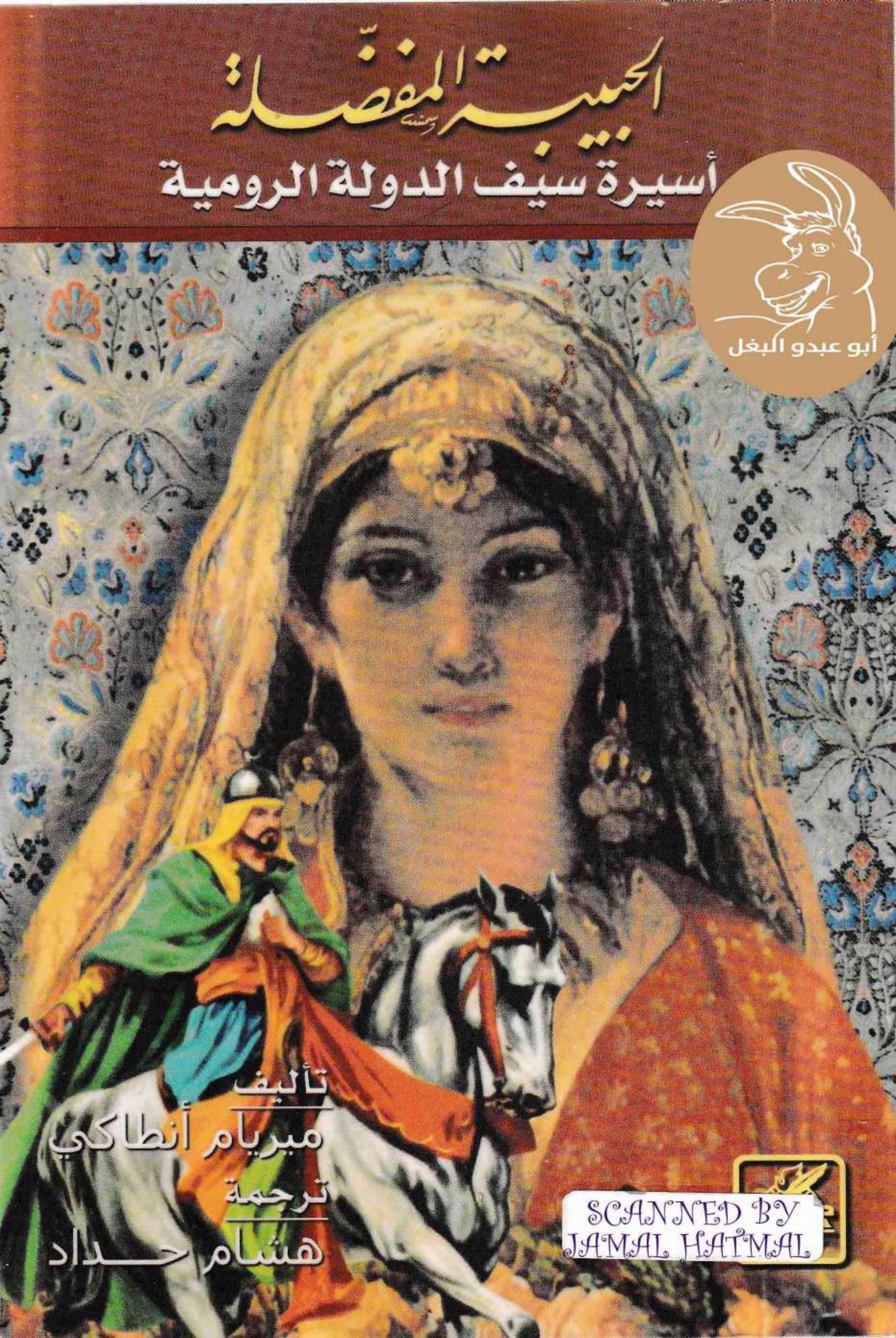
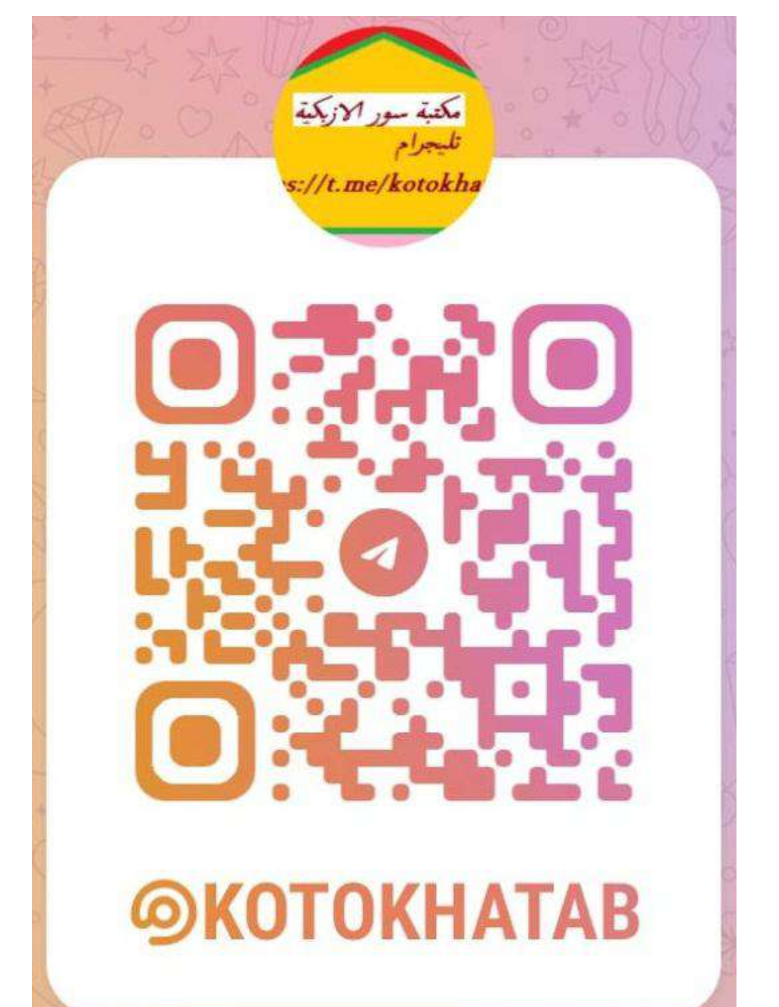


الحبيبة المفضلة
أسيرة سيف الدولة الرومية
أبو عبدو البغل
تأليف
ميريام أنطاكي
ترجمة
هشام حداد
SCANNED BY
JAMAL HATMAL




دار طـــــلاس
للدراسات والترجمة والنشر
دمشق - اوتستراد المزة. ص.ب: ١٦٠٣٥
هاتف : ٦٦١٨٠١٣ - ٦٦١٨٩٦١
تلفاكس : ٦٦١٨٨٢٠ - برقيا : طلاسدار

---

ريــع الــدّار
لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

ميريام إنطاكي




أسِيرةُ سيفِ الدّولةِ الرُّوميّة

ترجمة

هِشام حدّاد

الطبعة الأولى ـ ٢٠٠٠ م



إلى أمي..

م



---

يُحكى أنه كانت لسيف الدولة جارية من بنات ملوك الروم. لا يرى الدنيا إلا بها، ويشفق من الريح الهابّة عليها، فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه، وأزمعن إيقاع مكروه بها من سُمّ أو غيره، وبلغ سيف الدولة ذلك، فأمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطاً على روحها..

**أبو منصور الثعالبي**
**يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**



# 1

بيزنطة ، لم أشهد قط ، في حياتي ، مثل حسنك وبهائك ، أنت البوابة المهيمنة ، المشرفة على القارتين القديمتين الحافلتين بمختلف الثقافات والأعراف والعقائد الإلهية ، لقد حبتك الطبيعة بجزيرة في غاية الصفاء لِيُشادَ فيها بناؤك ؛ اختارك الرومان والإغريق لقيادة الكون . لك أعظم مرفأ في العالم ، وسفنك بلغت تخوم الصين . أما أسوارك الشامخة المحصنة بالأبراج المرتفعة فإنها تحمي قصورك الباذخة التي تتلألأ خيالاتها في خليج القرن الذهبي ، وأروقة نصرك ، وميادين جموح خيل عربات قادتك .

إنك يا بيزنطة ، مِن غَلطَه ومن أسكدار حتى جسر أوكسين ، تحلمين بأمجادك ، وأنا أحلم بطفولتي في ربوع بهائك وأبّهتك .

كان مولدي ، وأنا أميرةٌ بيزنطية ، مسرحاً لجهود حثيثة ، فقد تلقتني إحدى القابلات بيديها الهرمتين الماهرتين ، وغطست جسدي الصغير في حوض من الفضّة ، وانهمكت الخادمات في العمل ؛ كانت إحداهن تلوّح بمروحة من الريش فوق أمي المنهكة التي كانت تدفع بغطائها المطرّز باللونين الأحمر والذهبي . وتم فتح صندوقة عاجية ، عليها صورة ميلاد المسيح محاطة بإطار من الأزرار على شكل الورود الصغيرة ، وفيها كان جهاز طفولتي بكل رسومه المتألّقة .

ومضت ستة أيام ، ورأوا ما كنت عليه من الحسن والقوة ، فحملوني بكل مظاهر الأبّهة إلى بيت العماد ، حيث عمّدني الأسقف ، بعد غطسة مثلثة ، في المذهب الأرثوذكسي ، وأطلقوا علي اسم إيرين .

وعدت إلى بيت أهلي ، وأنا في ثوبي الأبيض ، في موكب طويل من حملة الشموع الموقدة ، وهم ينشدون المجدُ لله في الأعالي .

ترددت أصواتي الأولى، وخطوت خطواتي الأولى، وبدأت تربيتي في الجناح المخصص للنساء: وكان قائماً في الطابق العلوي، وكانت أرضه مبلّطة بالفسيفساء المتعددة الألوان، وجدرانه مكسوة بالمرمر الوردي، أما سقفه فكسوته كانت من أرز لبنان، وهو يحاذي غرفة الطعام الثلاثية الأسرّة والمخصصة للرجال، التي لم يكن يُسمح لنا بدخولها.

غالباً ما كان تعليم النساء مهملاً؛ بيد أن أمي التي كانت امرأة شجاعة واعية لواجبها، أرادت أن تجيد تربيتي. ولما كانت متديّنة فقد كانت تحتقر التفاهات وتفتقر لروح الفكاهة، مما يجعلها عبوساً حزينة، حرّمت على الخادمات أن يروين لي قصص الوحوش الخرافية، وكان يسرّها أن تروي لي وقائع الكتاب المقدّس وتعلمني أن أحفظ غيباً مقاطع من الإلياذة والأوديسة.

وتدريجياً، أصبحت أعالج بأناملي العشرة جميع غرز الأشغال اليدوية، وكانت القيثارة تصاحبني لأنشد الأنغام القديمة للشعر الغنائي.

كانت الأسرة البيزنطية أشبه بمملكة مصغّرة، ذات سلطة أبويّة محصّنة بالرعاية والحزم. كانت تبعية الزوجة قريبة من المفاهيم الغربية، بيد أن عزلة النساء في المكان المخصّص لهن، بحراسة الخصيان القفقاسيين المتعجرفين، كانت تدلّ على تلك السّمة من العفّة الشرقية والآسيوية، حيث تلتقي أشدّ القوانين صلابة بالأصالة المنيعة للعادات والتقاليد.

كان أبي يغمرني بالهدايا الصغيرة: من آلات الناي البهيجة أو الخذاريف المثيرة للدوار أو الدمى الشمعية التي كانت حاضنتي تكسوها بعناية فائقة. كان لي ميل شديد جداً لطقوس الحمّام: ففي جناح مستدير مسقوف بعدد من القباب، كان الماء ينساب كأنه شلّال من رأس أسد إلى المغطس الرخامي الوردي. وكان هناك مرجل من الشّبه لتعديل حرارة المياه. كانت فسيفساء الجدران تتناثر، لتنشر صور الأبراج على خلفية زرقاء، قاتمة، وفي أعلى القبّة المتوسطة، كان نبتون، إله البحار، ينظر شزراً إلى المستحمين المختلطين. كانت الحمّامات العامة تجتذبني أحياناً بسبب المجتمع الذي كنا نصادفه هناك. كان يتمّ الإعلان عن قدومي من جانب الإماء اللاتي كنّ يهيّئن كل ما أحتاج إليه مضموماً في بقجة من الحرير المصري المطرّز.

وذات يوم بدا النور فيه أكثر إشراقاً، وتراجع فيه لهيب أشعة الشمس، وكان يوم الذهاب إلى الساحة العامة التي احتشد فيها الجمهور المرح والمتسكعون الكسالى. ومضيت مع صديقاتي في عربة يجرّها حصانان أبيضان، يرافقنا الخصيان بأرديتهم الزاهية. كانت

الشوارع تزدحم بالباعة الجوّالين، ومزركشي الذهب، والإسكافيين، وصانعي طواحين التوابل وتجار الأقمشة. وهناك على الساحة العامة، كانت تمتزج الألوان والروائح التي تتجدد وتختلط بلا انقطاع، كما كان يمكث صاغة الفضة والذهب بمناضدهم المثقلة بالثروات. فجأة ومن وسط الضجيج المتكرر والمبهم، سمعت صوتاً عميقاً، حزيناً ينشد، وعرفت فيه ذلك الصوت المتوسّل والمؤثر للمتسوّل الجائع. كان الرجل ضريراً، وعلى قدر من الهرم وتغضّن الوجه مما لا يكاد يتيح رؤية عينيه، وقلت لوصيفتي أن تعطيه قطعة ذهبية، فدوّى الصوت الوقور عنيفاً وانتابتني قشعريرة:

— اقتربي مني، أيتها الأميرة الكريمة، إن عينيّ لا تريان النور، ولكنني أقرأ في فكر الله والناس. سيكون قدرك الساحر قصير الأمد كأنه قطرة ندى؛ فلن تهب رياح البوسفور إلا على طفولتك، لأن الغد ينتظرك تحت سماوات بعيدة، في قصر ملؤه السحر والروعة. ستكونين المرأة الراضية والمعبودة الأكثر بين نساء الكون؛ سينشد أمير جمالك كما لو أنه نعيم الفردوس. ومن بعدك سيغيب في عالم النسيان.

وأدركت أنه من خلال عبارات العرفان بالجميل هذه كان يكمن قدري.

— أعطيه قطعة أخرى.

كان اليوم التالي يحمل في طيّاته سلسلة من المفاجآت. كان الباسيليوس قسطنطين برفيروغنيتس عائداً إلى القصر الكبير بعد إقامة طويلة الأمد في حمامات دلف. وكان أبي بلباسه الحريري البنفسجي المكسو بفروة الزبلين، على صهوة جواده ذي السرج الموشّى بالذهب، محاطاً بالخدم المسلحين بالعصي لتنحية المشاة، يتجه نحو الباسيليوس، فقد كان صديقاً له ومستشاراً. كان ميل قسطنطين برفيروغنيتس إلى الفن والأدب والبلاغة يعود إلى ثقافته الرفيعة المرهفة. وقد جعلت مواهبه المتعددة منه رسّاماً، وصائغاً، ونحّاتاً، وموسيقياً، ومؤرخاً أو عالم آثار ذا معرفة شاملة.

كانت تسود في الأجنحة الإمبراطورية مراسم في غاية البساطة، صنعتها التقاليد الرومانية وعزّزتها اقتباسات عديدة من العادات الفارسية.

كانت تُفتح أبواب القصر منذ الفجر؛ ويتولى أحد الحجّاب إيقاظ الباسيليوس بثلاث دقّات يقرعها على باب مخدعه بالمفتاح. وما أن يرتدي الملك مبذله الأرجواني ودثاره الموشّى بالذهب حتى يتّجه إلى قاعة العرش ليقف وقفة تأمل أمام أيقونة تمثل العذراء والطفل. بعد أن بدأ يومه، كعادته في سائر الأيام، بالصلاة وشكر الله، ثم باستقبال

مستشاريه، أو الأشراف، أو البعثات، أو الأجانب أو أصدقائه الخلّص. ناقش الإمبراطور، وهو قلق، المسائل الخطيرة التي تؤرّقه؛ فالطاعون، الذي لم يأتِ من قبل في مثل هذه القسوة، اجتاح القرى التي تسمّرت في صمت الموت. لم يجرؤ أحد على دفن الموتى، خشية العدوى المؤذية. كانت الجائحة القديمة منذ الأزل تنشر نتانتها الخانقة على أسر بأكملها، وكان الفلاحون، من شدّة ذعرهم، يسعون من خلال شعائر عبادة يائسة أو خرافة بائسة إلى الخلاص دون جدوى. كان الباسيليوس يخاف على بيزنطة، المدينة التي يرعاها الله، بيزنطة أجمل جوهرة لديه، ومن جهة أخرى، وفي الآفاق عبر الرمال، كان الأمير الحمداني اللعين الذي لا يمكن وقفه عند حد ولا التفاهم معه، المنتصر في غزواته المفاجئة، يدفع أمامه إلى حلب الشهباء الأسرى منن الفرسان البيزنطيين مع قطعان من الماشية وكنوز تنوء بحملها كل دوابّ الركوب. كان الأمير سيف الدولة، أمير حلب، في مقدمة فرسانه الخفاف خفّة الريح، يمخر عباب الصحراء الذهبية يحمل الثروات والمجد. أما الجيوش البيزنطية، التي كان يقودها دُمستق المشرق الأعظم، برداس فوكاس، المشتّتة المنهزمة، فقد شهدت كل أحلامها بالنصر تتلاشى. وكم من محاربين لاقوا مصرعهم تحت سنابك الخيول العربية الأصيلة كانوا قد دعوا على القائد المسلم الذي لم يهزم في صلاتهم الأخيرة دون أن يلقى الدعاء أية استجابة.

سئم الباسيليوس من الأحاديث التي غالباً ما كانت مكررة، فأذن للمجلس بالانصراف. وأخرج البوابُ، وهو يلوّح بمفاتيحه، جميعَ الحضور وبهذا يكون قد منع الدخول إلى القصر في الساعة الثالثة. وطلب قسطنطين بورفيروغنيتس إلى والدي أن يبقى لتناول طعام العشاء. ودون أية مظاهر للأبهة أو الاستعداد أخذ الصديقان يلعبان الشطرنج إلى أن أتى ثلاثة أقزام وأحد المهرجين ليدخلوا البهجة إلى قلبيهما بدعاباتهم وطلاقة أسلوبهم.

بعدئذ دعانا الباسيليوس إلى عرض يقام في مضمار السباق لنشاطره مع أشراف آخرين منصّته الأمبرطورية ذات الأبواب المصنوعة من الشَبَه. كانت سباقات العربات ذات الجوادين والأربعة جياد وهي من أصل إغريقي موضع جدل هام ومتواتر، وكان سكّان بيزنطة، من فقيرهم المحروم حتى شريفهم المزركش بالذهب يتحمّسون، كلٌّ للحوذي الذي كان قد اختار لونه.

كان مضمار السباق، الذي بناه ساويرس، ليستقبل زهاء ثلاثة آلاف متفرج، موضع فخر لكل الأفراد، وشغف كل الأولاد، ومكاناً أنيقاً للّقاءات، ونادياً للمكائد، أو كما يراه الآخرون، مجرد مكان للتسلية مخصص لملء الأيام ذات الوتيرة الجوفاء.

كان قسطنطين برفيروغنيتس يفتتح مسلّة من الحجر المشيّد مكسوّة بصفائح من الشَّبه ، ذلك أن كل باسيليوس كان يبذل جهده في أن يَسِم عبوره في التاريخ ، وحظوته ، وعظمته ، بلَمسة تخلد ذكراه يتركها على هذا المضمار القائم أبد الدهر .

لم يحدث من قبل أن شوهد قط مشهد أروع ولا انتشار للألوان أشد بريقاً . كانت روائع هذا الصرح تضفي أصالة بكراً على ما كان لهواً وتنافساً منذ غابر الزمن .

كانت المسلّة ، التي شيّدها تحوتمس الثالث في هيليوبوليس ، قبل ميلاد السيد المسيح ، ترتكز على أربعة مكعبات من الشبه مزدانة بنقوش تمثل الألعاب . وكان العمود المصنوع من شَبَه دلف والملتف حول قاعدته ذات الأفاعي الثلاث التي تستند إلى رؤوسها الركيزة الذهبية ذات القوائم الثلاث والمهداة إلى أبولو ، وتمثال هرقل للنحّات ليسيبوس الذي يشرف ويبدو عملاقاً أمام المجموعات النحتية المنتزعة من الهيكل الوثني . كل ذلك كان يحيط بتمثال إيرين القائم وسط ينبوع أثري ليتلاشى بين ينابيع من المرمر الأبيض تتغنّى بفوّاراتها بترداد لا نهاية له .

ارتدى الإمبراطور كل حلل الأبّهة ، وانحنى ، والشمعة في يده ، أمام مختلف المقصورات ، واتجه بعد ذلك إلى المنصة الإمبرطورية ، حيث كان ينتظره كبار رجال الدولة والبطارقة ؛ كانت العربات مربوطة بالخيل ، والشعب مصطفّاً على مقاعد المدرّجات ، والحكام وممثلو المتنافسين في مواقعهم ، والحرس الإمبرطوري متحلقاً حول راياته . كانت تلك اللحظة حافلة بالكثير من الهيبة ، والترقّب مثيراً بصمته الرهيب والمتلهّف في آن واحد . وحين ظهر الباسيليوس على المنصة ، لوّح رئيس التشريفات بذيل الدثار الإمبرطوري ، فقام قسطنطين برفيروغنيتس ، بحركة متحفظة وعظمة متماسكة بمشقة ، مباركاً الشعب مرات ثلاث .

وعلى المدرّجات ، كانت الرؤوس تنحني أمام مباركة الحاكم المطلق ، ولكن سرعان ما دوّت الهتافات المتجاوزة الحدّ وعلى نحو لا يُحتمل ، لتختنق بقدرة قادر حين بدأت جوقة الحرس بالعزف على أرغناتها الفضيّة .

وفق العادة القديمة ، الراسخة في تكرارها الوفي لتقاليدها ، كان الباسيليوس يقذف المنديل في الحلبة لتُفتح الأبواب ذات الخيول البرونزية الرائعة فينطلق سائقو العربات انطلاقاً لا يُشقُّ لهم غبار بين هتاف الجمهور وهرجه ومرجه .

كانت الإمبرطورة جالسة إلى جانب الإمبرطور ، وكانت وصيفات الشرف يجلسن في مؤخرة المنصة ، وهن يخفين رؤوسهن خلف الحجب الشفافة والساطعة للمرأة العفيفة .

كانت تتخلل سباقات العربات فواصل ترفيهية متنوعة : مثل عروض الحيوانات المجلوبة من خارج البلاد ، والمشاهد الساخرة ، واللوحات الحية ، والألعاب البهلوانية .

لدى هبوط الليل ، وهو يغمر الفضاء بألوانه الذابلة ، بدأ الموكب الاحتفالي للمشاعل باختراق الشارع الرئيسي ، بأناشيده الهادئة ، وأصواته المثيرة ؛ كان مَسيرةً للتآخي بين الغالبين والمغلوبين يتجولون فيها بمشاعلهم ، وهم يتحدّون الليل ببطئه المظلم ، وصمته المطبق .

في اليوم التالي أهدانا الباسيليوس قماشة أثرية كانت تستخدم لغسيل القدمين ، ضمن صندوق أثري فخم مزدان بالطلاء الخزفي والجمان .

تتشابه الأيام السعيدة جميعها ، ولم يكن قلبي يقدّر الفرح ولا الألم ولا المطلق . لقد استقرّ فكري في النجوم الساكنة ، والمياه الراكدة ، وتحوّل اكتمال سِنيّ طفولتي إلى ترقّب مبهم ، وبحث دائم الظمأ ، ذلك أن الثمرة الناضجة تنفصل عن شجرتها . واكتشفت أن الأمنية الأبعد حدوداً تكمن في الفكرة التي ما تزال مبهمة ، والسلوك الذي مازال خجلاً ، والبعد الذي مازال غير محدّد للحب .

ثم أقبل يوم الأحد لنذهب كما جرت العادة من خلال الطريق الملكي إلى كنيسة القدّيسة صوفيا . كانت النساء يجلسن في المنصات المخصصة لهن ، خلف الستائر الحريرية ، ومن هناك كنا نشاهد المنور الفضي والمذبح المصنوع من الذهب المصمت يعلوه الصليب الضخم المقدّم إلى قسطنطين الأول . وكانت الأعمدة الرخامية الأرجوانية ، والأيقونات المصنوعة من العاج والذهب ، والمرمر الأبيض والأخضر والوردي والأصفر ، ولاسيما الفسيفساء المتعددة الألوان ، تضيف إلى عظمة آيا صوفيا التي لا تُضاهى ، خشوعها الصوفي الهادئ .

حين شرعت جوقة المنشدين في تراتيل المجد ، لم أكن أدري أنها كانت تقرع من أجلي أجراس الوداع ، تلك اللحظة التي كانت تضيع فيها نظرة الحب الأخيرة في غياهب القلق الصامت : وداعاً يا أيام طفولتي الحافلة ، وداعاً يا كل من شاهدني وأنا أنضج ، وداعاً يا بيزنطة الخالدة .

كان المساء يشدو بأنغامه البطيئة حين أبلغني أبي ، وقد أرهقته الهموم ، أنه خوفاً عليّ من الطاعون ، سيتم إرسالي إلى عمل خرشنة ، حيث يقيم أخوالي . كان الانطلاق سيتم بعد

أربعة أيام. كانت مربيتي وبعض الخادمات ممن سيصحبنني في رحلتي، يتناهبن السرور واللهفة لمغادرة ما كنّ يعتقدن أنه الملل من سائر الأيام من أجل السحر الذي لا يقاوَم الذي تحمله الأيام القادمة المختلفة. وكان علينا أن نلتحق بقافلة ذات شأن من أجل ضمان أماننا ورعايتنا.

مازلت أذكر هاتين العينين اللتين طالما أحببتهما واللتين كانتا تتطلعان إلى عودتي، ومازلت أذكر أيضاً عينين أخريين، خامدتين، جافتين، تريان وحدهما فقط أني لن أعود.

كان الربيع يتفتح في الخارج، ربيع وردي ليلكي. والبوسفور الهادىء منذ غابر الأزمان يعكس طلائع أشعة النهار القادم على صفحته الفضية ليبارك كل الراحلين بالسلام والجمال.





# 2

كان صحبي قد لقوا حتفهم، والفرسان البيزنطيون الأباة يرقدون على الرمال التي اكتست بزرقة الليل الحالك، ورفاق سفري مكبلين بالأغلال، وكنت أنتظر الموت برعب صامت. لم أعد قطّ أتحمل الضجيج الصامت للدروع التي تتجابه، وصرخات الرعب، والأصوات الغريبة للمحاربين الشرقيين الذين كانوا يقاتلون باسم الله.

كنت، وأنا في هودجي الذي تلطخت ستائره بالدماء، أقبض في يدي على خنجر بكل مرارة وغيظ كنت ألتزم بالصمت في هذه الظلمة المائلة إلى الاحمرار، صمت النجاة. شعرت بالإرهاق وارتميت على وسائدي الوردية، وأنا أخفي رأسي بباطن ذراعي. واقترب صوت سنابك خيل سريعة، وسمعت صوت قطّاع الطرق في الصحراء يقترب، ورفع أحدهم ستائر هودجي.

— أيها الأمير، ها هي أسيرتك الحسناء. انظر.

ونزل الرجل عن مطيّته وانحنى نحوي، ثم نظر إلى صاحبيه باسماً. قذفت نحوه بخنجري، الذي غاص في خشب هودجي قرب رأسه، فأخذه وأنشأ يلعب به، ولبثت لا أجرؤ على النظر إليه، لأني أدركت أنه أمير الصحراء الكافر، عدو قومي.

وخاطبني بالرومية:

— سلام الله عليك، أيتها الغريبة، من أنت؟ إنك أجمل من الصباح المشرق.

كان يتكلم بتؤدة، كان متعالياً ووسيماً.

— أنا أدعى، الأميرة إيرين.

— وماذا تفعلين وأنت وحيدة، أيتها الأميرة، في ليل الرمال هذا؟

ـــ لقد ضللنا طريقنا ، حاشيتي وأنا ، وكنا في سبيلنا إلى عمل خرشنة ، وأرادت مشيئة الله أن أكون تحت رحمتك ، يقال عنك إنك طاغية سفّاح ، فاقتلني إذن ولكن لا تخضعني للعبودية ، أتوسل إليك . . .

ـــ إذن ، فأنت تعلمين من أكون ؟

ـــ خمّنت ذلك ، أنت الأمير سيف الدولة ، الأمير الذي تجرّأ على التصدي لبيزنطة ، أنت شرس لا تعرف الرحمة .

صمتَ ، وهو هادىء الأعصاب ، مراقباً إياي من زاوية عينه .

ـــ أيتها الأميرة ، أترغبين بمرافقتي ؟ ستكونين مليكتي .

ـــ أنا أسيرتك ، فأنا نصرانية .

ـــ إن في حلب العديد من النصارى يؤمنون بربّك دون أن يلقوا أي عناء! تعالي معي وستعيشين في قصر عامر بالموسيقا والأفراح . ستمتثل الجواري لأمرك ، ويتغني الشعراء بحسنك . ستكونين مثقلة بالأحجار الكريمة ، وستأتي أجمل الأقمشة من الموصل وبلاد فارس من أجلك . سأحافظ عليك لأحضر كل يوم وأتأمل وجهك .

ـــ لا تهزأ بي .

ـــ وافقي فقط على مرافقتي ، فلدي من أجلك مملكة سأعمل على توسيعها من أجل مجدك ، وإذا لم ترافقيني ، فسأرافقك مع رجالي المقاتلين لأحرسك وأدافع عنك .

وتلوّن وجهه مما أضاف على هيبته كِبَراً .

ـــ أتودّين أن تكون مليكتي ؟

ـــ نعم .

ـــ أيها الأخوة لقد فتحنا مملكة وها هي ملكتنا .

لم أدرِ كيف لم يبق سوانا هو وأنا ، وبحركة فيها البساطة والعفوية ، تقدّم نحوي ليحلّ المشبك الفضيّ الذي كان يحتجز شعري الطويل . وحينما وضع يده على كتفي ، شعرت أني مهيضة الجناح ، فشرعت في البكاء .

ـــ لن أمسَّكِ إلا حين تغرورق عيناك فرحاً .

وانطلق ، فأدركت أني بدأت أنتظره .

في فجر اليوم التالي ، اتخذنا طريقنا نحو حلب حيث تم استقبالنا استقبال المنتصرين . حلب التي انتابتني قشعريرة هائلة لدى مشاهدتها ، حلب المشرقة ، حلب الضاحكة ، حلب التي شعرت فيها بالفرح الشديد .

# 3

من باب اليهود[١]، وصلنا إلى جبل الجوشن حيث يقع قصر الحلبة، قصر الأمير سيف الدولة.

يتم بلوغ القصر بواسطة بوّابات شامخة، منحوتة بما لا يحصى من الأشكال الغريبة، والتي كانت تدور مصاريعها، كل على نجران[٢] زجاجي. بعدئذٍ تبدو القاعات المتتابعة، المزخرفة بالأعمدة الصغيرة الأنيقة. كانت حنايا العقد مزدانة برسوم الأزهار، وبين الطيقان الزخرفية، ترتسم، بالحروف الكوفية، سور من القرآن الكريم، وأجمل ما قاله الشعراء من أبيات الشعر. كان للقاعة الكبرى خمس قباب لازوردية تدعمها مائة وأربعة وأربعون عموداً ذات أطواق فضية. كان النور يدخل إليها من خلال زخارف زجاجية، ترصع هيكلاً مخرّماً من الجصّ؛ وتجري من حولها زخارف نباتية ملتفة خضراء، تبرز منها مزهريات تنوء بالنباتات الحيّة.

في الأحواض حيث يسبح النيلوفر، كانت النوافير تنعش الجو برذاذها الملون بألوان قوس قزح. والطنافس تغطّي البلاط الرخامي، حيث السجف من الحرير المطرّز، والأثاث، والمقاعد، والمناضد، والأرائك مزخرفة بالصدف والعاج. والعطور تتصاعد من الركائز الثلاثية المرصّعة بالأسلوب الدمشقي، كما كان يتردد صدى موسيقا بعيدة تشنّف الأذنين...

كانت تمتد الحدائق حول القصر، حيث تتفتح الورود، وشقائق النعمان، والنرجس واللوتس والياسمين. وكانت الطواويس البيضاء تختال بوقار تحت الأقواس الخضراء الباسقة..

---

(١) أصبح باب النصر منذ عهد الملك الظاهر.

(٢) هو الثقب الذي يدور فيه عقب الباب وتسميه العامة «زعرور».

ولدى هبوط الليل تشدو العنادل بملء أصواتها، فتتصاعد زغاريدها لتصل إلى النجوم التي ترتعش من السعادة التي تغمرها.

وفي جناح الحريم المثير كانت ثلاثمائة امرأة يغنّين، ويرقصن، ويطرّزن، ويتزيّن، ويتخاصمن، كن ينتظرن بكل لهفة، وسعادة أو خيبة، ما يطلقن عليه اسم الحبّ. كانت كثرة الجواري أكثر من نفعهن. وجاءني العديد منهن ليعملن على إقامتي في حجرة مفروشة بالحرير الأخضر. ومن فراشي الوثير كنت أرنو إلى باحة داخلية ينبعث منها أريج الزهور النادرة، وخرير السلسبيل الذي يبلّل بمياهه كل ما حوله.

منذ لقائنا الليلي في الصحراء، لم أر الأمير سيف الدولة، كان الانتظار طويلاً وغامضاً حتى انفتح باب حجرتي، ورأيته يدخل وكأنه طفل معاقب طائش. جلس بعيداً عني وهو يتظاهر بأنه يتفحص حجرتي، وحدثني عن مدى حبّه لحلب، وسألني عمّا إذا كنت سعيدة.

ــ حدثيني عن طفولتك وعن حياتك.

كان يكفيني أن أتأمله ليتدافع ماضيّ برمته، على الرغم من قربه، إلى شفتيّ، دون انفعال ولا حنين.

ــ أنت في مقتبل العمر وطاهرة، سأدعوك ياسمين.

ــ ياسمين.

ــ سأحبك على الدوام، فأنا أبحث عنك منذ زمن بعيد.

ــ وأين بحثت عني؟

ــ بحثت عنك في الموصل، في موطن آبائي، وفي بغداد في الشوارع الحارّة والقصور الرائعة؛ بحثت عنك في ابتسامة أولئك اللاتي أحببنني واللاتي رافقنني.

ــ ألم تكن حلب إذن أرض آبائك؟

ــ إذا كنتِ ممن يحب الحكايات الطويلة، فسأروي لك كنوز الماضي، وسأكشفها لك غداً.

ــ من أين أتيت؟

ــ أنا أنتمي إلى أسرة تغلبية من الجزيرة الفراتية، وتولّى والدي باسم الخليفة العباسي المقتدر ولاية الموصل. وكان يُدعى عبد الله أبو الهيجاء بن حمدان بن حمدون، كان شجاعاً وسخيّاً؛ وضعني في عهدة خيرة علماء الموصل ليعلموني العلوم والفنون. وقد نسي، وأسفاه، أنني بين أبناء جلدتي كنت أعرق الحمدانيين، ذلك أنني ولدت من أجل

الحبّ ، وقبل كل شيء من أجل الحرب . فمنذ نعومة أظفاري ، عشقت الصيد ، وكانت النشوة تتملكني وأنا على ظهر جوادي الأشقر الجموح من نجد ، عبر الرمال الجافة ، تدفعني رياح السَّموم ، مستولياً على الفرائس الجامحة التي كنت أسوقها إلى رجالي المُعُبّرين . ولدى هبوط الليل واستغراق القصر في أحلامه ، كنت أنسلّ خفية بين الحدائق الساكنة فأصغي إلى شدو النجوم وأرتجل الشعر . وكان هذا هو السر العظيم في حياتي .

« مات أبي خلال الفتن التي حدثت في بغداد ، فخلفه أخي ناصر الدولة ، وترعرعت في ظل صروف حياته المحاربة المضطربة .

« كان أول نداء للقتال نداءً دموياً . وفي دار صناعة القصر ألبسوني درع زردٍ مغطىً بمعطف من القماش الناعم ؛ وأعطوني خنجراً مرصّعاً وسيفاً محنياً يحمل اسم الحمدانيين ، وخوذة لها واقية للأنف وعباءة فخمة ذات شرّابات ذهبية . وفي مربط الخيل انتقيت أجمل فرس عربية أصيلة ، مجلّلة بالحرير وصفائح الفضة .

ـــ حاربت منذ نعومة أظفارك ، كم كان عمرك ؟

ـــ خمسة عشر عاماً . كان أهل الموصل مأخوذين بحداثة سني ، فكانوا يرددون : « إنه يرتدي اللباس الأبيض لأن حياته صفحة ناصعة بكر ، ولكن الشرّابات الذهبية ستدخلها في صفحات المجد والأعمال الباهرة » . ونظرت إليّ أمي وأنا أنطلق نظرة ألم وفخر وقالت : « حماك الله ، لأنك وفيّ لقومك » .

« كنت في كل مغامرة على ظهور الخيل أو أية غزوة خطرة أكتشف خدعاً حربية حاذقة . كنا نواصل الليل بالنهار ونحن يقظون ، وقد أرهقنا الظمأ ، خلال عبورنا الصحراء ، ونحن نصارع كثبان الرمال المتحركة ، وننصب الأشراك لخصومنا » .

« وانطلقت بي الأقدار من ظفر إلى آخر ، وهي تنوء في كل خطوة بأمجاد جديدة . وهكذا اكتشفت وأنا في ظل مضربي وتحت عقود قباب قصري الوفاء والغدر والثأر » .

ـــ ما أشدّ الملل الذي عانيتُه في طفولتي !

وابتسم

ـــ استقبلني أمير المؤمنين في قصره ببغداد ذات القباب الوردية ، بحفاوة بالغة . لقد تأثر بانتصاراتي ، ونظرت وأنا منبهر إلى أبّهة الخلفاء العباسيين ، وكنوزهم المترفة ، وروعة احتفالاتهم ، وبذخ حياتهم اليومية . وحين سار إلى بغداد الوردية البريديون المسيطرون على

البصرة، وهم الطموحون الذين لا يفكرون إلا بمصالحهم، لجأ الخليفة المتّقي إلى الموصل، طالباً إلينا النجدة، وكلفوني بمحاربة البريديين، وهكذا دقّت من أجلي ساعة القدر.

قال الشاعر:

| | |
|---|---|
| **ولما ثار سيف الدين ثرنا** | **كما هيّجت آساداً غضابا** |
| **أسنّته إذا لاقى طعانا** | **صوارمه إذا لاقى ضرابا** |
| **دعانا والأسنّة مشرعات** | **فكنّا عند دعوته الجوابا** |

«بعد عودتي إلى بغداد الوردية، سرعان ماأرهق الملل حياتي في القصر، المتلألىء بالنوافير، والذي يرفل بالبروكار الدمشقي وحرائر فارس. وألقيت خطبة في رجالي الصناديد، الطافحين بالأمل، والمنهكين بالملذات، وباشرنا المغامرة المجنونة للحرية.

«وبدا كأن العالم بأسره يرتعش على حدّ سيفي، أهي فارس العريقة، أم جزيرة العرب السعيدة، أم سورية بلد الرخاء، أم بيزنطة الخالدة. كانت سورية هي التي تناديني. كانت كأنها شريكتي الصامتة، كانت تقدم لي جواهرها الفريدة، ومدنها ذات الجمال الساحر المتوارية خلف حدائقها التي تداعبها الظلال والمياه، وصحراءها الشاسعة ذات الكثبان القرمزية.

«كانت سورية إذّاك تعاني من تسلّط وتعسّف الإخشيد حاكم مصر، الذي بعد أن أبعد سلطة الخليفة، امتد بسلطانه حتى جبال طوروس.

«وأعددت حملة من آلاف المقاتلين، والخيل، والإبل، والمضارب، والأسلحة، واقتفينا مسار الشمس الذي كان يقودنا نحو الغرب.

— «وفي ذلك الحين، كانت مربيتي، في بيزنطة الساكنة تهز سريري وهي تشدو بصوتٍ صافٍ، حنون، هامس، يغيب في ظلام الليل.

— وحينئذٍ، بينما كنتِ تحلمين، وأنت صافية النفس، بين الفقاعات الضوئية، والعطور السريعة الزوال، والنسيم العابر، كنت أخطب في جيوشي، وأعلّم الآخرين صناعة الحرب، وأن يَقتلوا ويُقتلوا.

«وتمت هزيمة الإخشيديين بعد قتال دام ثلاثة أعوام، وفتحت مملكتي وحققت أحلامي في حلب وحمص وحماة ودمشق، وأنطاكية، وعين زربه، وسيس وعينتاب ومنبج، وكثير غيرها، وحاربت بيزنطة المتعجرفة لأحافظ عليها وألقاك.

« فتحت كل هذه البلدان باسم أخي ناصر الدولة ، لأنه كان هو الأكبر وأنا أدين له بالاحترام والعرفان . لقد كان حقاً حاكماً للموصل ، ولكن وفي كل مكان ، ومن أعلى المآذن الفضية يتم الدعاء له ، وكنت راضياً كل الرضى عن ذلك .

« رغبت في أن تتنافس حلب الشهباء ذات الشرفات المنخفضة مع بغداد ذات القباب الوردية فشيّدت قصر الحلبة لأنسى في مباهجه المترفة ميادين الصحراء التي اصطبغت بلون النار والدم .

« ذات يوم وفيما كنت أتسلى بإطعام طاووسيّ الأبيضين ، جاءني عبيد أحد قادة فرساني ، ليعلن قدوم رسول من بغداد . وخشيت من أن يكون أمير المؤمنين مستاءاً من انتصاراتي ؛ لا يمكن لأيٍّ كان أن يتجرأ على إعادة غزو سورية ، وما من محارب يمكنه أن يغامر في بلادي فقد كنت قادراً قاسياً . أوعزت باستقبال الرسول ومرافقيه ، ووضع العبيد في خدمته والقيام بالترويح عنه ريثما يستريح من عناء السفر .

« استقبلته في قاعة العرش حيث انتشر أخف العطور تأثيراً من جزيرة العرب . كان يحيط بي رجال بلاطي : من المماليك ، وقادة فرساني ، والشعراء ، والفلاسفة .

« انحنى الرسول مرات ثلاث ، وقدّم عبدان أسودان صندوقاً مرصّعاً بالعاج .

— « هاهو رداء قام بنسجه وتطريزه أمهر الصناعيين في بغداد . إن لباس الشرف هذا عربون سلام وصداقة ، لأن أمير المؤمنين عرف فيك أسمى محارب في الإسلام ، وهو يمنحك لقب سيف الدولة .

« وما أن انتهى من كلامه حتى قبّل عباءتي البيضاء ، ومن أجل إدخال البهجة إلى نفسه ، أنشد الشاعر أشعاراً يكيل بها المديح لبغداد . ويصفها بدرّة العراق ومدينة الشعراء والخلفاء .

« انطلق الرسول عائداً عبر الصحراء ، يرافقه مائة عبد نوبي يسوقون مائة جواد مثقلة بالهدايا ، وكان قلبي مفعماً بالعرفان للخليفة .

— وهكذا ، كتب الله قدرك ، الله أكبر .

— ماذا تحبين من الزهور ؟

— الورد .

— خمّنت ذلك ، فقد حلمت حلماً غريباً ، وكان النعاس قد غلبني تحت مضربي الأرجواني ، في تلك الليلة التي التقيتك بها ؛ كنت تتقدمين نحوي ، وأنت ملتفة بخُمُر سوداء تزيد من

نصاعة بياض بشرتك . كانت يداك مضمومتين ، كما يصلّي الكفّار ، ولكنهما كانتا مكوّرتين إلى حد ما وكأنهما تخفيان أشياء صغيرة . كنت تنظرين إليّ بهيام وحزن ، وفتحت يديك ببطء لتقدمي لي وردة حمراء ، أسكرني الفرح ، وكنت أستنشق رحيق تويجاتها ، وأنا نشوان ، حينما استيقظت منتفضاً .

وابتسمت .

ــ وهل كانت الانتفاضة لمجرد وردة ؟

ــ كلا ، فقد بدا أبو فراس ليقول لي : «أيها الأمير الوسيم ، ما هذه التويجات التي تتفتت على الأرض ؟» وبحثت عنك لتفسّري له ذلك ، ولكنك كنت اختفيت وتطايرت خُمُرك السوداء .

وأخفى قلقاً خفيفاً وتابع :

ــ أرأيت ، لقد أدركت أنك تحبين الورد .

ــ ومن هو أبو فراس ؟

ــ إن روابط الدّم هي أقوى الروابط . إن أبا فراس هو أعزّ أبناء عمّي إليّ ؛ إنه حمداني حقيقي يهوى الحرب كما أهواها ، لقد اكتشفنا معاً خططاً جديدة ، وحاربنا معاً أصحاب الفتن ، وبيزنطة . إنه أكثر فرساني المحاربين شهامةً وإقداماً ، ولكن من خلال كل ما لديه من اندفاع ، فأنا أفضّل شعره الرقيق المرهف الإحساس . أبو فراس قريب من مهجتي ، وأشعاره تدخل البهجة إلى عشيّاتنا في الصيف ، سيكون سعيداً ببهجتنا .

وقلت بخبث :

ــ إذن ، سأتعلم البهجة معك ؟

ــ كم عمرك ؟

ــ ستة عشر عاماً .

ــ أنت رَخْصة العود لأنك تتوقعين أن تغمرك البهجة .

ــ وأنت رخص العود لأنك لم تعد تؤمن بالبهجة كل الاعتقاد .

ــ ربما .

وخرج ، وتساءلت أين سأجلس في المرة القادمة ، لأكون أكثر قرباً منه .

كان الحريم يضم النساء اللامباليات المستسلمات لصروف الدهر ، وكان حافلاً بمرارة أولئك اللاتي سدّت أبواب الأمل في وجوههن ، وغيرة وتآمر أولئك اللاتي يرغبن في الاستيلاء

على كل شيء. كانت نساء الحريم يتدافعن، وهن يصطبغن بالمساحيق الكثيفة، ويتعطرن بأقوى أصناف العطر، وهن جميعاً مبتسمات، هادئات، متكلفات أو غامضات.

وعلى رأس هذه الصورة الساخرة من العالم والحياة، كانت مريم، المرأة القوية المتسلطة. كان يعلو نحافتها المدهشة وجه هيكلي شاحب اللون. مع الزمن تساقط شعر جبهتها ليسفر عن أذنين طويلتين دقيقتين. كانت مريم تدّعي معرفة كل شيء، والثقة بإلصاق العيوب بجميع الناس؛ كانت تقود ثلاثمائة امرأة وسبعمائة عبد وخصي في مثل ضمورها، متناسية أية وصية من وصايا إيمانها المسيحي. لم أكن أحب مريم، وكانت تحبني لأن سيف الدولة يحبني.

في ظل عقود قباب الحريم المنخفضة، تعرّفت على علياء التي اخترتها صديقة لي: كانت حسناء، لطيفة، باسمة، وصمتها يخفي حياة داخلية قاسية، وكآبة. كانت تعيش في عزلة لأنها كانت مثالية، ولم يكن مَن حولها كذلك. كانت زينب السمراء دائمة المرح وطافحة بالحيوية، وكانت رولا الشقراء تتيه بشعرها الذهبي وهي تتكلف التعاظم الزائف؛ وكانت ليلى ذات الشعر الأحمر وأخريات كثيرات، ربيعة، زلفى، فاطمة، كان هناك من النساء بمقدار ما تتنوع أذواق الرجال.

كانت الأيام تتباطأ بانتظار سيف الدولة، الرائع، أو العنيف، أو الحنون. كانت أياماً مفعمة بالهدايا الصغيرة: خواتم ذهبية وفضية موشاة باللآلئ والفيروز، أكياس بالعشرات ملأى بالزمرد والعقيق في أطباق ذهبية مزخرفة، صناديق خشبية ملبّسة بالحرير وملأى بالأقمشة الفارسية، ضفيرة ذهبية مجدّلة تحتوي بيضات خزفية تضم عطور العنبر والمسك والصندل، وقفص ذي سلك فضي يحمي طاووساً ذهبياً يفتح ذيله على قوس قزح من الأحجار الكريمة.

ذات مساء بينما كنت أعزف على القيثارة وأغني أحد ألحان طفولتي؛ دخل سيف الدولة وأخذ يداعب شعري، فارتعشت من الانفعال.

ـــ أتعلمين أن القمر قد أصبح بدراً وهو في يومه الرابع عشر؟

ـــ نعم.

ـــ ها قد مضى بدران وأنا أهواك، ألا تذكرين ذلك؟

واقتادني إلى قاعة الحريم الكبرى، وقدّم لنا بعض العبيد كؤوس الفاكهة، وأشربة مثلّجة ومربّى الورد، وبإيماءة من سيف الدولة، غنّت جيداء ذات الصوت الرقراق الأشد

عذوبة من المياه ، بكآبة حالمة ، قصائد ابن حجاج ، ورقصت أجمل فتيات الجزيرة العربية ، وهنّ يرفلن بالأثواب الموصلية المتألّقة .
ــ أترغبين في حبّي ؟
ــ أرغب في ورود حمراء .

كانت كلمة واحدة من سيف الدولة كافية ، ليتقدم موكب من العبيد بثيابهم المزركشة ، ويفوح أريج الورد الذي وضعوه أمام قدميّ : ورود من بغداد ذات تويجات قمرية ، وورود من شيراز ملونة بالليلكي ، وورود من جزيرة العرب نقية كالثلج ، ولكن أية منها لم تكن حمراء .
ــ ألا يوجد في حدائقي ورود حمراء ؟

وأجاب الخصي مبارك :
ــ أيها الأمير ، لا توجد أية وردة حمراء تزيّن حدائقك .
ــ محمود ، أحضر لي كأساً .

وتناول سيف الدولة من حزامه المصنوع من البروكار خنجره المرصّع وثقب راحة يده ، وتساقطت بعض قطرات الدام في الكأس الفضي ، وغطس أنصع الورود بياضاً ، وبحركة بطيئة ولكنها واثقة ، قدّمها لي وقد غضّ طرْفه .

وبعد لأي ، حين غادر القاعة الكبرى ، لحقت به ، وأنا فاقدة الشعور . لا أدرك شيئاً سوى أن أتبعه . دخل حجرتي وجلس على طرف فراشي ، وأتيت ، وأنا مرتعشة ، لأجلس بجانبه .

لأنه أحبّني ، ولأنه احتوى لأمد طويل رغبته فيّ ، ولأنه شعر بأنه راضٍ ، لأني بطهارتي البكر كنت أنتظره ليل نهار ، أخذني بذهول صامت ، دون أن ينبس ببنت شفة سوى زفرة مختنقة .

وطلع الفجر المثير ليلقانا محتضنين وأنشد الشاعر :

**فمضت وقد صبغ الحياء بياضَها لوني كما صبغ اللجينَ العسجَدُ**
**فرأيت قرن الشمس في قمر الدجى متــأوّداً غصــنٌ بــه يتــأوّد**

# 4

كنا في العام الثاني والأربعين وثلاثمائة للهجرة، والثالث والخمسين وتسعمائة للميلاد، في تلك الساعة التي كان فيها الوداع يذرف الدمع وهو يجهش بالنحيب.

كان سيف الدولة ينطلق نحو حملة جديدة، فقد كان على فرسانه الأشاوس، كل ربيع، أن يحملوا الدمار والرعب إلى القواعد الشرقية حتى حصني قبق وغالاسيا. كانت الحدود بين إمبراطورية الروم وملك سيف الدولة تمتد من القفقاس إلى بحر سورية، كانت حدوداً متحركة وفق أهواء المنتصرين.

كان قصر الحلبة يموج بحماس الجيوش المرابطة على أبوابه. ذهبت إلى قاعة الحريم الكبرى لأتمكن من مشاهدة سيف الدولة ورجاله وسمعته يخطب في فرسانه المقاتلين:

ـــ أنتم، ياأبناء مضارب الصحراء، لقد خلقكم الله بدواً رُحّلاً لأنه أرادكم هائمين على وجوهكم. إن حياة البلاط تخمد حماسكم إلى القتال، واندفاعكم إلى المعارك. اذكروا مآثركم في الظمأ وسط الصحراء، وصراعكم المفعم بالشهامة من أجل الحريّة، وتذكروا أن الدنيا شاسعة وسنجعلها ترتعش تحت سنابك خيلنا الجموح، وسوف نغزو آفاقاً جديدة، ونَرِد سراباً أبعد. سنعود مثقلين بالغنائم، وهناك الكثير من النساء سينتظرننا في ساحة الحريم التي توحي بالكسل! سنتحدى الكفّار لأن الله أمرنا بالجهاد.

«الصحراء لنا، والرمال أوفى أصدقائنا لأنها شاهدتنا بينما كان يشتد عودنا.
إن جهادنا مقدس، والله أكبر».

كان الجيش مؤلفاً من خيرة الفرسان والمشاة، وفق نظام صارم وتنظيم مكتمل الجوانب.

وهكذا حين أزفت ساعة القتال ضد الكفّار، سارع الشباب المؤمنون بحميتهم وثقتهم، والأتقياء المتحمسون، والمغامرون الطامعون بالغنيمة والثروة، وانضموا تحت لواء سيف الدولة. بالإضافة إلى العبيد الذين تم شراؤهم لهذا الغرض، ولاسيما من مصر، والمرتزقة من الأتراك والزنوج والبربر، وبعض المرتدين من الروم.

كان بريق السيوف والأقواس والسهام والرماح والحراب يخطف الأبصار تحت أشعة الشمس. وكان قرع الطبول بصوته الأجش، ومنظر الإبل المشوّه، تلك الجمال المثقلة بالمتاع وعدّة القتال والمؤونة، يبعثان الهلع بين صفوف خيول الروم.

كانت أعداد هائلة من هذه الجمال الآتية من كل حدب وصوب تتبع الجيوش العربية. كانت الرحال والسروج مزدانة بالشرائط والضفائر والشرّابات الملونة، وكانت هذه الأرتال الزاحفة الضخمة التي لا تنتهي، المزدانة برمّتها بهذه البقع المتعددة الألوان، مثيرة الغبار الهائل، تعرض مشهداً خارقاً ورهيباً إلى حد بعيد. كانت تختلط أصوات هذه الحيوانات الغريبة وسائقيها بالأغاني وأناشيد الدراويش، وقرع الطبول ورنين الصنج.

تابعت مسار الحملة، مرحلة مرحلة؛ توجّه الجيش من حلب نحو حرّان ودرب القلة، واجتاز الفرات حتى بحيرة غولدجق لينتهي في مرعش حيث جرت المعركة البطولية. وهناك روت جيوش الروم بقيادة الدمستق بارداس فوكاس المؤلفة من شتات من المرتزقة الأرمن والبلغار والصقالبة والاسكندنافيين، والخزر من جنوبي روسيا، والبطارقة الأشداد بأبهتهم، وجيوش بيزنطة من المحاربين البواسل، الأرض السمراء بدمائهم الحارّة. وهكذا رحلت عن المعركة القوات الإمبرطورية، وقد تحطمت معنوياتها واندثرت آمالها بعد أن رأت قائدها برداس فوكاس وقد أصابه جرح بليغ في وجهه.

ازداد جيش سيف الدولة بآلاف الأسرى وبالغنائم الثمينة، وببادرة شهامة من المنتصر، أحاط برعايته أثمن ما في غنائمه، قسطنطين فوكاس ابن برداس، الأسير الرائع محاطاً بالعديد من البطارقة الأسرى مثله، وهم في طريقهم إلى منفاهم الكئيب.

وفي تلك الأثناء، وفي حلب الشهباء، كان نهر قويق يجري بمياهه وكأنها صفائح اللجين، وكان الشفق يتلاشى في غياهب الظلام.

وصل الرُسُل، وقد أنهكهم السباق والظمأ والغبار، ولدى دخولهم قصر الحلبة، استسلمت مطاياهم استسلاماً لا قيام بعده، وأنشد المتنبي أشعاراً خالدة يمدح فيها سيف الدولة وفتوحاته:

**نثرتهُمُ فوق الأُحيدب كلّه — كما نُثرت فوق العروس الدراهم**
**ولست مليكاً هازماً لنظيره — ولكنك التوحيد للشرك هازم**
**لك الحمدُ في الدرّ الذي لي لفظُهُ — فإنك معطيه وإنّيَ ناظم**

ثم قال مخاطباً برداس :

**أفي كل يوم ذا الدُّمُستُقُ مقدِمٌ — قفاه على الإقدام للوجه لائم**
**أيُنكرُ ريح الليث حتى يذوقه — وقد عرفت ريحَ الليوث البهائم**
**وقد فجعته بابنه وابن صهره — وبالصهر حملات الأمير الغواشم**

ضمن الحريم ذي الإيقاع البطيء ، كنت أرقب دون توهّم ولا مرارة كل الاهتمام الذي يحيط بي ، وكل ألوان الصداقة المعروضة عليّ وعلى رأسها تلك الرغبات المقنّعة في الحلول محلي في ما أحظاه . وذكرت ذلك لعلياء التي أجابتني :

ــ ألا تعلمين أن الخطيئة الأولى في العالم كانت بسبب الغيرة ؟

ــ نعم ، الشيطان ثم آدم ثم قابيل ، ولكنني لا أميل إلى اعتقاد ذلك . كنت أحيا في اللامبالاة بكل ما لا يتعلق بسيف الدولة ، فلم يكن بداخلي سواه ، وهو لم يكن هنا .

أخذ الفرح بالجمهور كل مأخذ فعلت أصواته حماساً وهتافاً وغناءً للنصر الذي أحرزه سيف الدولة ؛ وأنا المضطربة المتلهفة والسعيدة ، كنت أنتظر تلك اللحظة التي أراه فيها يظهر ، وأنا مستقرّة على شبّاك قاعة الحريم الكبرى .

وتقدّم ، تحيط به هالة من الأبّهة ، بلباسه الأبيض ، ممتطياً حصانه جهاداً برحله الذهبي ، وافتتح المسيرة المجيدة على رياض من سجّاد قونية وقيسارية المفروش حتى في الشوارع . وعن بعد لمحت البشرة السمراء التي لوّحتها الشمس تشرق تحت العمامة الياقوتية الأرجوانية ؛ وكان حاملا السيف حسين ومبارك يتبعانه ، وبشرى يرفع راية النصر عالياً . وكان قادة الحرس عبيد ونجا وجعفر يحيطون به وقد تزيّنوا بغنائمهم الذهبية ، والسيوف العريضة المعقوفة الفضية تلمع في حرّ الهاجرة كاللهيب المنتشر من العنقاء في السماء .

وعلى حين غرّة ، ساد الصمت ، فالجمهور لم يألف إلا ما اعتاد عليه ، فقد أخذته الدهشة كل مأخذ وأصبح عاجزاً عن الكلام : فعلى باب قصر الحلبة ، ترجّل سيف الدولة عن جواده ، وهذا ما لم يفعله من قبل ، وبدلاً من أن يدخل القصر ، توجّه نحو فارس يمتطي صهوة فرسه البيضاء ؛ وعن بعد بدا الرجل في غاية الحسن ، بيد أنه حين ترجّل ، رأيت حول معصميه سلسلة دقيقة من الذهب .

ـــ أهلاً بك في حلب ، إن قصري تحت تصرفك ، وأنت هنا أخٌ وصديق ، سأسهر بنفسي على راحتك ، وأودّ أن تكون رغباتك برمتها مستجابة . هيّا .

وللمرة الأولى ، شهد قصر الحلبة امرأً يتقدم سيف الدولة في اجتياز البوابة . كان الرجل الذي تقدّم عليه الأسير قسطنطين فوكاس .

ـــ ياسمين ، هل انتظرتني كثيراً ؟

ـــ انتظرتك .

ـــ أتعلمين متى فكرت بك أكثر مرة ؟

ـــ متى ؟

ـــ على بحيرة غولدجق ، كان الجيش يرقد في صمت ؛ فخرجت من مضربي لأتأمل الماء والقمر . وفي سكون الليل كان يتألق نور النجوم . وأفعم هدوء الطبيعة قلبي بالحنان ، وانتابت كتفيّ قشعريرة من البرد ، وشعرت بقدرة الله تعالى تدفع بالمياه ، حينئذٍ فكرت في أصل الخليقة .

« قال الله : « ليكن النور » وخلق الفرح في عينيك .

« قال الله : « لتكن الموسيقا » . فغنّيتِ أنت .

« قال الله : « ليتموّج البحر » . فرقصتِ أنت .

« خلق الله الخضرة والزرع » . وكنتِ أنت من أعطى .

« خلق الله العصافير وزقزقاتها ، وكنتِ أنت من ترحّب بها .

« وفي اليوم السابع ، ارتاح الله ليتأملك .

ـــ وأنت يا حبيبي ، متى ولدت ؟

ـــ حين بدأ الله يتأملك .



# 5

ـــ ياسمين ، أتدرين أن حصاني جهاداً هو أوفى أصدقائي ؟ إنه في المعركة أمهر المحاربين ، أحدّثه فيفهمني . إن المجد يرفع من شأن من يختاره ، بيد أنه يبعد عنه الأصدقاء الخلّص . ليس المتنبي ، وهو أكثر شعراء بلاطي تألّقاً ، سوى متملّق خسيس . وُلد معه فن الكلمات وموسيقا القوافي ؛ أحب عبقريته ، ولكني لا أحب شخصه ، إنه ينتمي إلى من يدفع أكثر . غامر مغامرة طويلة في صباه فادّعى النبوّة ، وهكذا لُقّب بالمتنبي . ومن أجل خروجه من السجن واسترداد حريّته عاد إلى الإيمان بالإسلام وجاء إلى قصري منذ خمسة أعوام . وهبته أملاكاً شاسعة وعبيداً وجواري ، وخلعت عليه ألبسة فاخرة ، وأجمل الخيول العربية الأصيلة ومئات الأكياس من الذهب ، وهو دائماً على خلاف مع أحد الشعراء الآخرين . بيد أن شعره هو الأكثر جزالة في أسلوبه ، إنه حافل بالوعود ، ويعبّر عن الحقيقة ، سيجعل مني إنساناً خالداً .

ـــ إن تواضع أميري يوازي إنكاره لذاته .

ـــ إن شيطان بني جلدتي هو المباهاة ، أتغفرينها لي ؟

ـــ كلا ، فأنا أودّ لو أحببتك ، ونحن مختبئان معاً في جوف قوقعة .

ـــ لو حدث ذلك لكسوتك بالجمان .

ـــ ولهربت أنا .

ـــ لن يستطيع أحد الهروب مني ، حتى ولا قسطنطين فوكاس .

ـــ لعلّه يعرف أبي .

ـــ وددت أن أجعل إقامته مذهلة لا تُنسى . لقد أسكنته بجوار حجراتي ، ووضعت مائة عبد في خدمته وطاعته ، كما تحيط به خمس عشرة فتاة ، وتكثر على مائدته المآكل الأشهى والأفخر . هو وسيم طاهر ، وهو في نظري جذّاب ، أود لو التقى به الفارابي ، لأنه مثالي .

ـــ أنا لا أعرف الفارابي .

ـــ هناك ، في بلاطي ، حكيم ، فيلسوف حقّ علمني كيف أفكّر ، إن هذا الرجل العلّامة

الموسيقي يمثل بين يدي كل صباح ليحدثني عن فكرة لديه نضجت خلال نومه. إنه طويل ونحيف ويتكلم بتؤدة؛ التقيته في دمشق أول مرة، وحين طلبت إليه الجلوس فاجأني بقوله:

ــ «هناك حيث أنت أم هنا حيث أنا؟»

«فأجبته هناك حيث هو ولكنه، وببساطة الواثقين من أنفسهم، انقضّ على مقعدي وجلس عليه وهو يدفعني.

وشكوت أمري بالرومية إلى الأمراء الذين كانوا يحيطون بي قائلاً إن هذا الرجل المسنّ كان فظّاً وسأطرح عليه أسئلة يجهلها لأتمكن من طرده. فأجابني بالرومية:

«صبراً، أيها الأمير، فلكل فرصته».

وبهزاله المنحني، وحديثه الشيّق، تحدّث الفارابي إلى أن حان وقت الصلاة: تحدّث عن الفن كأنه ملهَم، وعن العلم كأنه علّامة، وعن الحياة كأنه حكيم؛ وحاولنا أن نفهم كل شيء ونحفظ كل شيء. ثم تناول آلة كانت معه، وعزف عليها بكل خفة، فضحك كل من كان في المجلس، وبالتؤدة ذاتها، وخفة أصابعه، فك أوتار آلته وأعاد تركيبها بشكل آخر، وعزف عليها، فنام القوم بأسرهم وكأن الأمر كان سحراً.

«وأنا فخور كل الفخر في أن يكون الآن في بلاطي. لقد علمني الفارابي أن أحيا، وربما أن أحبّك. قال لي ذات يوم، ولن أنسى ذلك ما حييت:

«هناك فرصة وحيدة في حياة المرء ليكون سعيداً.».

«وهكذا تصوّرت، من أجلك ومن أجلي عالماً جديداً. تعالي وانظري فراشنا الوثير العائم على حوض زئبقي.

وتبعته إلى قاعة فسيحة مكسوة جدرانها بالذهب. وفي زواياها الأربع مباخر فضية تتصاعد منها حلقات دخان البخور بأريجه العطر، وفي كل جهة، كانت تتناثر الزهور وكأنها قبلات خاطفة. وخلف الأروقة كان هناك موسيقيون يعزفون ألحان أغنيات الحب على القيثارة والكمان، وكنا نسمع في فترات الصمت الأهازيج الصحراوية في إيقاعها البطيء وحدائها المتناغم.

وهكذا كانت الحياة تمر باسمة ناعمة، وفي كل ليلة كان سيف الدولة يتأملني وأنا أتفتح تفتّح الزهرة، فأستسلم للنوم الهنيء بين ذراعيه الدافئتين. كنت أحيا ملء حياتي، بيد أن السعادة تولّد الخشية من المجهول، وكانت فتيات الحريم الأخريات ينتظرن، وهن يتحرقن شوقاً وألماً وغيرة، عودة السيّد.

# 6

كان سيف الدولة يهواني وكنت أهواه ، بيد أنه كانت تتملكه نزعة البسالة والشهامة ، وهوى التنقّل الجارف لدى البدوي ، بالإضافة إلى صلابته وإقدامه . لم يكن سيف الدولة يعود من حملة إلا لينطلق إلى أخرى ، فلا يلتصق إلا ليركن إلى الفرار ، وتعلّمت أن أهواه على هذا النحو ، والشدّة تتملكني .

وذات مساء جاءني ، وعلى وجهه تتألق نيران الانطلاق .

ـــ مازالت حدودي منيعة كل المناعة من مرعش إلى سميساط ، وكذلك في أعالي نهر دجلة ، بيد أني سأعيد بناء أسوار الحدث وجدرانها . إن برداس فوكاس يرغب في الاستيلاء على هذا الحصن الشامخ المنيع لأنه مفتاح العبور إلى سورية الشمالية ؛ ويودّ أن يمنعني من إعادة رفع أسواره .

ابتسم وقال :

ـــ إن إمبراطوركم لا يغمض له جفن بسبب ذلك ، ويحمل الهم من أجله وكأنه عبء ثقيل ، بيد أن الحدث تخصّني ، وإعادة بنائها أمر حيوي . لقد أطلقوا عليها اسم الحدث الحمراء ، بسبب دماء الروم التي سالت بغزارة في جنباتها . سأذهب بنفسي لأباشر بإعادة بنائها ، ولكن عليّ أن أفارقك ، وعليك أن تنتظريني .

ـــ انطلق سريعاً ، فإني أتوجّس خيفة .

سار سيف الدولة ، كما جرت العادة ، بين قرع الطبول وصليل السيوف وهياج الجمهور ، سار وأدركت أني لم أكن أخشى إلا عليه ، ناسية ، كل مرة ، أبناء قومي ، وأخذت خفية ألوم نفسي على ذلك ، وأنا أخفي عاري وألعن هواي .

كانت الهزائم النكراء تقضّ مضجع الدمستق برداس فوكاس فقرر تجهيز حملة ليحاصر الحدث .

وأحاط بالحصن خمسون ألفاً من العساكر الصقالبة، والروس، والروم، والبلغار، والأرمن، وسدّوا جميع الطرق لئلا تتمكن الحامية المحاصرة من الاتصال مع سيف الدولة وقواته. وانتاب هذه الحامية القلق والاضطراب ولكنها استمرت بالقتال بحرابها الفتّاكة، على الرغم من موج المنايا الذي كان يتلاطم حول الأسوار[١].

بيد أن سيف الدولة الذي كان على ظهر جواده بعيداً عن الحدث، أحس بالخطر وشعر بالعدو. وأقلقه عدم وصول أي خبر من موقع الحامية فنزل إلى رعبان، واندفع إلى أبعد من ذلك تحيط به خيرة فرسانه، وشقّوا صفوف الروم مباشرة نحو برداس فوكاس، فما كان من جيش الروم إلا تشتّت وأخذ بالفرار، ومرة أخرى انهزمت بيزنطة وتمزّقت، فسقط منها ثلاثة آلاف من القتلى، وأما الأسرى ومنهم البطارقة وكبار رجال الدولة، فقد تبعوا الجيش المنتصر وهم يلعنونه في سرّهم، وقد نجا نقفور بن برداس فوكاس من الموت بعد أن احتبأ يوماً بأكمله في سرداب عفن.

وحينما أقبل المساء وتكبّد المجد ألوان العناء والكبرياء، حينئذٍ نظم المتنبي، وكان قد ساهم في القتال، قصيدة عصماء قال فيها:

| | |
|---|---|
| **بناها فأعلى والقنا تقرع القنا** | **وموج المنايا حولها متلاطم** |
| **وكان بها مثل الجنون فأصبحت** | **ومن جثث القتلى عليها تمائم** |
| **وكيف تُرجّي الرومُ والروس هدمها** | **وذا الطعن أساسٌ لها ودعائم** |

وازدهت الحدث وقد أحدقت بها أسوارها الشامخة في عنان السماء، وحول الأرض، وقد سقاها الدم المراق الحار، لتخضوضر صفحتها السمراء.



---

(١) هذه الصورة مستعارة من قصيدة المتنبي الآتي ذكرها في هذه المناسبة.

# 7

ـــ ياسمين ، سئمت من القتال ، أنا ، أحياناً ، أخشى على حياتي . وأنا أفضّل صوت القيثارة بأنغامها الهادئة لأتأمل جمال العينين وأصغي إلى مشاعر القلوب . ترى ، أمن أجلك ، لم أعد أجرؤ على الانطلاق على الرغم من الملأ الفسيح الذي ينحني بخضوع تحت سنابك خيلي الجموح ؟

قلت :

ـــ نعم من أجلي ، وكم أرغب في أن تبقى على عهدك في حبّي ، وأرغب تلك اللحظة التي تنسى فيها الحرب ، لأنها هي لا تنساك . ويا للسعادة المهددة في الرغبة في حماية هذه الحدود من هجمات ذاك الجبار المتمثل في إمبراطورية الشرق . كانت بيزنطة لا تعني لي سوى هواجس على ضفاف القرن الذهبي ، صنعتها الأضواء الوردية والليلكية . ولم يحدث قط أن خدش العنف أو الموت مخيّلة طفولتي .

ـــ ياسمين ، أنا أنطلق ، هذه المرة ، بصفة رسول سلام ، فأنا أود أن أنحني أمام قبر أمي نُعوم التي لم يتح لي أن أقدم لها تحية الإكبار الأخيرة ، سأذرف دمعي أمام حجر جاف ، ذلك الدمع الذي كانت تجففه بظاهر يدها وهي تهدهد طفولتي . لقد منحتني نذورها وصلاتها المجد في آفاق العالم ، والفضيلة في أعماق النفس ، فيا للكنز المفقود ، ويا للوجود المستمر ! « ياسمين ، سأفارقك لأذهب إلى ميافارقين ، سأغادر الصحراء القاحلة لأحاذي الفرات المنعش بمجراه الكسول . سأجتاز الجزيرة التي ستبقى إلى الأبد ملاذي الأمين . وسأذهب إلى حرّان على خطا سيدنا إبراهيم الذي أتى من مسقط رأسه في بلاد الكلدان ؛ ثم إلى ماردين ، مخلّفاً ورائي كل ما لا يعبّر عني تعبيراً حقيقياً . لأني حقاً ابن الجزيرة الفراتية . سأشاهد آمِداً وهي شامخة على هضبتها الشاسعة وهي تشرف على الدجلة الذي يتلوى لتبقى على ضفافه : آمد السوداء ، بحجارتها البركانية ، حيث تتغضن جدرانها

الكئيبة على زرقة النهر اللازوردية ، ذلك النهر الشاهد على الحب ، والشاهد على الجرائم ، النهر الذي شاهدني وأنا أترعرع . وعلى بعد مرحلتين من الدجلة تأتي أخيراً ميافارقين ، الصامدة بسورها المبني بالحجارة البيض ، حيث يجفّ ، منذ قرون خلت ، دم الطامعين الخائبين الذي استحال لونه إلى السواد . هي مدينة منيعة ، صلبة ، بهيجة ، أضفت إلى جمالها قصراً فخماً ، ومساجد مترفة ، ورممت مضمار سباق الخيل فيها . هناك تغوص جذوري ، وهناك تحيا أسرتي ، وهناك لا يطلقون عليّ اسم الغريب .

« في حلب ، تزدحم مشاغل الحياة ، وتزداد كثافة الناس ، وتتراكم الأيام والكل سعداء في ذلك . لقد تكبدت سورية حملات الأمبرطوريات العظمى بأسرها ، إنها أرض العبور والفتوحات ، وسكانها يميلون إلى من يشابههم ، ولا يوجد أقرب إليهم منك » .

« أهوى حلب بحيرتها المتثاقلة الغارقة في ألوانها المشرقة ، إنها أنشودة الشعراء وموسيقا خرير المياه . أمّا القلق فيتسكّع خارج أسوارها مع قبائل الأعراب الرحّل المصطحبين معهم قوافلهم المديدة بين الفرات وتدمر وحلب . عندما أردت طرد الإخشيد ، جاء كل هؤلاء الأعراب ينضوون تحت لوائي : الكلابيون المجاورون لحلب ، والكلبيون من سهوب حمص ، والنميريون والعقيليون من بادية تدمر ، وحتى القرامطة أكثر الناس عصياناً . وبكل أسف ، فإن هؤلاء البدو الرحّل الذين نبحث عنهم في كل مكان دون أن نجدهم ، يكونون في مكان آخر غير المكان الذي نلاحقهم فيه . وهم ما أن يحصلوا على الغنائم حتى يعودوا إلى تجوالهم مشتتين لا يخضعون لشريعة أو رادع ، أشدّاء ، لا يتبعون سوى صروف الدهر .

— ولِمَ لا تعمل على استقرارهم ؟

— إن روميّتي الصغيرة لا تدري أن هذا يعني قتلهم ؛ فهم يشعرون أنهم في سجن داخل المساحات المشرقة للواحات المزرقّة ، تسيطر عليهم البقعة ذاتها من السماء ذات النجوم ذاتها كل يوم . إن البدو ، يا ياسمين ، سيستمرون في اجتياز العالم إلى الأبد دون أن يخضعوا ، وهم دائماً متمردون على الرغم من بطء خطواتهم .

— دعنا من البدو ، فأنا مطمئنة إلى سفرك ، لأنه رحلة عرفان وإكبار ، فلن تُراق الدماء ، ولن يترصدك الموت ، وسأنتظرك كما فعلت بالأمس ، وكما سأفعل غداً .

— ياسمين ، في ميافارقين تعيش زوجتي الأولى ، إنها حمدانية مثلي ، لقد وهبتني ولداً ، هو أبو المعالي ، الذي سيتولى ، ذات يوم ، عرش أجدادي . وأنا مدين لها بالتقدير ، ولم يحدث قط أني سمحت لأية امرأة أن تقترب مني على مرأى منها . إنها قوية ، متسلطة ، أبيّة ، صلبة . قامت مع أختي جميلة بحفر حفرة أمام أسوار المدينة لتأمين الدفاع عنها . إنهما تشرفان حتى على الإدارة الداخلية . وددت أن يكون رجالي ، وحتى أشدهم طموحاً ، مثلهما .

شعرت أني أكاد أختنق غيرةً فلا أجرؤ على الكلام، ولكني تمالكت وقلت وكأني لا أبالي :

ــ لماذا لا تعيش إلى جانب زوجتك ؟

ــ ياسمين . إذن ، فأنت لا تدرين شيئاً على الإطلاق . منذ بدء الخليقة وحتى نهايتها ، لم ولن أحب سواك .

غادر سيف الدولة حلب على رأس خمسة آلاف من العساكر وحرس قوامه ألفان من غلمانه . وكان المتنبي في الرحلة ، وطاب له أن ينظم أبياتاً في هذه المناسبة . تمت الرحلة تحت وابل من المطر ورياح شديدة . وكانت البلاد التي اجتازوها تعاني من القحط ، فزوّدهم سيف الدولة بالمؤونة وأخذ ينثر عليهم الدنانير الذهبية . وأصبح كرَمه أسطورة تتناقل بين مدينة وأخرى .

وقام المتنبي ، في إحدى قصائده ، بوصف جمال وشباب سيف الدولة ، وهو يستعرض البحر المائج من الفرسان على الخيل المطهمة بالزرد ، لينتهي متأثراً منزوياً ، أمام حجر صلد ترقد أمه تحته في كفن أبيض ، إلى الأبد .

| | |
|---|---|
| نُعِدُّ المشرفيَّةَ والعوالي | وتقتلنا المنونُ بلا قتال[1] |
| وهذا أولُ الناعين طُرّاً | لأول ميتةٍ في ذا الجلال |
| كأن الموت لم يفجع بنفس | ولم يخطر لمخلوق ببال |
| وزُلتِ ولم تَرَيْ موتاً كريهاً | يُسَرُّ الروح فيه بالزوال |
| رِواق العزِّ حولكِ مُسبَطرٌّ | وملك عليٍّ ابنِكِ في كمالِ[2] |

***

| | |
|---|---|
| مشى الأمراء حوليها حفاةً | كأن المروَ من زِفِّ الرئال[3] |

***

| | |
|---|---|
| أسيفَ الدولة استنجد بصبر | وكيف بمثلِ صبرِك لِلجبالِ |
| فأنت تُعَلِّمُ الناسَ التعزِّي | وخوضَ الموت في الحرب السّجال |
| وحالاتُ الزمان عليك شتّى | وحالُكَ واحد في كل حالِ |

(١) المشرفية : السيوف ، والمراد بالعوالي الرماح .

(٢) مسبطر : ممتد . والمقصود بعليّ سيف الدولة .

(٣) المرو : حجارة بيض براقة ، والزّف صغار الريش والرئال جمع رأل وهو ولد النعام .

حين عاد سيف الدولة ، كان الربيع يضفي على الأيام نفحة من النور والعطر الخفي ؛ دخل الحلبة مفعماً بالكبرياء ، وعساكره تتواكب في أرتال مستقيمة وهي تحيط بولده ، أبي المعالي ، وريث عرش بني حمدان .

وشعرت بالانفعال يعتصرني ، وأنا أختنق ، بيد أن ذلك كان ممتزجاً بتلك العذوبة التي تتفتح وتحتد . لقد عاد ليعشقني ، كما كان قد حدث أول مرة ، بحياء غرّ ، وكما لو أنه لم يختبر الحياة بعد . كان مفتوناً ، أذهلته ضحكتي ويداي ومتعتي ، كان هائماً وكنت أعشقه .

وذات مساء ، أزاح سجف حجرتي وتقدم ضاحكاً ، يتبعه غلام مراهق شبيه به .

ــ ها هو ولدي .

لم يبلغ أبو المعالي بعد ، من خلال ذلك الوجه الحائر بين إشراقات الطفولة والتعبير عن عزم الرجال ، درجة كافية من الوسامة . وكانت الابتسامة التي تغضّن أحد الخدّين أكثر من الآخر ، والعينان ، ببعض نظراتهما السريعة تجعله مشابهاً لأبيه مع قدرة أكثر كبتاً ، ونبوغ قد يكون أقل .

لم يتحدث أبو المعالي إلا لماماً ، لمحت من خلالها يقظة مرهفة لحواسّه في طبيعة أخرى مازالت تبحث عن نفسها . كان سيف الدولة فخوراً به ، وأخذ يروي ما جرى لهم خلال عودتهم من ميافارقين ، وسباقات خيلهم بمسافاتها البعيدة ، وغرائب لقاءاتهم ، واكتشاف كل منهما للآخر ، وفجأة أضاف وهو في ذهول :

ــ بنيّ ، يا بنيّ ، كيف أمكنني نسيان أن أتلو عليك كما أتلو صلاتي ، دعائي ، تلك الألفاظ المهيبة التي علمني إياها أبي ذات يوم بعيد ، كنت فيه بمثل سنّك ، يوم من الماضي السحيق كنت أفضل فيه أن أرمي بقوسي ، يوم مازال حاضراً في مخيلتي على الرغم من مرور الزمن ، أصغ إلي ولا تنسَ :

« عليك بالكفاح فهو سبيل المجد . إذا رفع القدر من شأن آخر ، فلا تعمل أبداً على الحط من شأنه أو حسده ، فهذا أمر خسيس ودنيء . عامله بصدق فقيمة الرجال بأحوالها . احترم المسنّ فهو يحمل حكمة العالم بأسره ، وارع المرأة ، فهي أمنا جميعاً ؛ أحب الطفل ، فهو مايزال يحمل بين جنبيه رائحة الجنة .

كن سخيّاً لأن المال بلسم للعديد من الآلام ، أنفقه بسعة ، فهو يدخل البهجة إلى قلوب الآخرين .

لا تنسَ أبداً صلات ذوي القربى ، ونداء بني قومك ، فمن أنكر عشيرته استحق الرمي ليكون فريسة لأبناء آوى .

وفيما بعد، يا بني، حافظ على ذكراي، فأنت امتداد لي، كما أردت ورغبت؛ أنت من سيصير، من بعدي، ذكراي وغدي، ولدي، ومفخرتي، وبهجتي.

صمت سيف الدولة، وقد فاض به التأثر لذكرى أبيه. وأكّد أبو المعالي:

ـ لن أخيّب حسن ظنّك، يا أبتاه.

ـ لقد أملى علي أبي شرائع الحياة، ووسمني بصوته الأجش كما تسم بقعة الدم صفحة بيضاء، ناصعة. كانت هذه كلماته الأخيرة التي احتفظ بها من أجلي، وتوفاه الله بعد ثلاثة أيام.

أقبل المساء ونحن نصلي، وعلى الرغم من التأمل بأقوال سيف الدولة كان أبو المعالي يختلس نظرات إلي أثارت السخط في نفسي. لن يكون ابن الرجل العظيم رجلاً عظيماً أبداً؛ لأنه سيستميت في تقليد الآخر متناسياً ذاته.

لن أسعى قط لإعادة اللقاء مع أبي المعالي. كانت المرة الأولى كافية. وسرعان ما عاد إلى ميافارقين.





# 8

في أقبية الحريم ، كانت أراكسي تقوم بتركيب مساحيق التجميل ، والمراهم ، والعطور في صالة فسيحة قائمة ضعيفة التهوية . كانت أراكسي الأرمنية بالغة البدانة ، مستديرة العينين الخاليتين من أي تعبير ، شعرها مجعّد يميل إلى الحمرة . كانت قليلة الكلام ولا تجيب من يحدّثها إلا بمقطع واحد . كنت قد زرتها في مطلع دخولي إلى الحريم ؛ وبعد أن تحسست بشرة وجهي وهي تتمتم بعض الألفاظ بلغتها الأم ، أعطتني بعض النصائح مثل شرب كأس من شراب الورد المثلج عند الاستيقاظ من أجل نقاء البشرة وشفافيتها . وغادرتها كي لا أعود قط إلى هذا الجو المشبع بالقتامة والتعسّف ، والذي لا يمكن لروائحه وأقنعته أن تزيل القبح .

على منضدة من خشب أرز لبنان مرصّعة بالعاج والزمرد ، كان يقبع كأسان من الذهب . في أحدهما خمر أحمر مدفأ ، وفي الآخر الأكثر شفافية شراب الورد المثلج ، كأسان ذهبيان يرقبان مضجعنا ، مضجع الحب والهجران . وشمعدان فضي يتراقص شاحباً فالصباح يشرق على مهل . وفجأة علا صراخ قذف بي خارج سريري ، وسمعت صوت سيف الدولة يملء حنجرته :

ـــ لعنة الله عليك ! ماذا تفعلين يا رولا ؟

كان وجه رولا داكناً ، وكانت حافية القدمين ، تمسك بيدها قارورة ، يبدو أنها أفرغتها في كأسي .

ـــ ارحمني ، ارحمني ، يا مولاي ، لست أنا من أراد ذلك .

وأمسك بها سيف الدولة بخشونة :

ـــ إن كل ألوان التعذيب لن تكون كافية لعقابك ! أنت التي أحببتُها ، أنت التي كنت موضع ثقتي ، ستموتين أيتها الحقيرة !

ـــ ارحمني ، لست أنا من يفعل ذلك ، بل وقعت القرعة عليّ .

ـــ تكلمي ، وبسرعة ، وإلا خنقتك .
ـــ لم أكن أنا ، وإذا قلت لك ، فهي التي ستقتلني .
ـــ تكلمي ، فتبقي على قيد الحياة .

كان الحريم في هرج ومرج بسبب توسلات رولا . وكانت اللاتي دبّرن المؤامرة يترصّدن : وكنّ قد سهرن الليلة بأكملها . لم أر في حياتي قط امرأة منهارة على النحو الذي كانت عليه رولا . كانت جاثية على الأرض تقبّل قدمي مولاها ، كانت تبكي ، وتتضرع ، وتشهق مما جعل سخط سيف الدولة يتفاقم .

اعتراني ذهول شديد لدرجة الشعور بالانهيار من الألم ، بيد أنه سرعان ما شعرت بساقي ترتعشان لدى سماعي اسماً تلفظه شفتا رولا .
ـــ إنها علياء ...

علياء صديقتي الحلوة ، الصدوقة ، الأقرب إلي في أيام العزلة والقلق ، والألطف في سويعات الفرح . كلا ! إن رولا تكذب . واأسفاه ! من الصعب تصديق الحقيقة المحزنة .

ثم كانت هناك الأخريات : زينب ، زلفة ، فاطمة ، جميعهن يغرن منّي إلى درجة زادت عن الحد . بيد أن علياء التي كانت أكملهن وأشدهن عاطفة ، كانت تهيم حباً بسيف الدولة ، ولم أكن على علم بذلك .

وصحت :
ـــ اصفح عنها ، يا عليّ ، أتوسّل إليك ، يمكن نسيان كل ما حدث ، إن علياء صديقتي ، فاصفح عنها ...
ـــ ياسمين ، اسكتي ... لتحضر علياء !

وددت لو لم أعرف ما حدث بعد ذلك ، فقد ظلت بعض الرؤى فترة طويلة تستبد بلياليّ المؤرقة . كان ذلك الكابوس الذي بدأ مع دخول علياء من الباب وقد حال لونها ، وتألقت عيناها . لم تكن تنظر إلا إلى سيف الدولة ، كانت تبدو وكأنها خارج حدود الألم ، وطلبت منها الصفح في سرّي . تناول سيف الدولة الكأس وقدّمه إليها وهو يلعنها . لم تنبس ببنت شفة ، ورفعت الكأس نحو فمها ؛ وفي اللحظة الأخيرة كانت شفتاها ترتعشان كما لو أنها كانت ستجهش بالبكاء ، ولكنها أغمضت عينيها ، وشربت السمّ في جرعات صغيرة ، وأخذ وجهها بالارتخاء كما لو أنها شعرت أخيراً بالراحة . أواه ! يا علياء ، سامحيني على حبّي له ! لن أنساك ما حييت ، أنت التي طالما تألمت بسببي .

تلوّت مرتين ، ثم تهاوت رخصة العود ، هزيلة . ندّت عنها صرخة وحيدة ، ومعها انطفأ قلق الليل .

علمت بعد ذلك أن أراكسي كانت تحضّر سموماً وأنها كانت تتقن فنونها .

لن ينتهي قط التعرف على الرجل الذي نحبّ . كان من أشقّ الأمور على نفسي قسوة سيف الدولة وعدوانيته الشرسة تجاه كل ما يتعلّق بدس السم لي . ولم يتح لي قط أن أمسّ هذا الموضوع طالما أن الغضب يعصف به . وبعد مرات عديدة من التردد ، أجهشت بالبكاء وهو يضمني إلى صدره ؛ وجاء الحكم على غير ما توقعت . لقد أساء سيف الدولة تفسير بكائي ، وظنّ أن ذلك بسبب شعوري بالتهديد يلاحقني فقال لي بحسرة :

ـــ على قمة جبل منسيّ تحت الشمس ، ينتصب قصر ضائع لا يصل إليه أحد . إنه لي ، وأنا وحدي أحبّه ، وهناك ستذهبين لتعيشي ، ولن يعرف أحد مكانك ؛ سآتي للحاق بك ، ونصبح كلانا وكأننا في قوقعة لا تنفتح .

« لن تتعرض تلك الأفاعي اللاتي أردن قتلك لألوان التعذيب ؛ لأنك طلبت إليّ الصفح عنهن . سيخضعن بأسرهن للعبودية ، بعيداً عن ناظريّ ، بعيداً عن حقدي . منذ الفجر سيتوجهن إلى ميافارقين حيث سيقضين أيامهن الطويلة القاسية وهن يقمن بأعمال وضيعة » .

« إن نجا هو قائد جيشي المفضّل . كان عبداً لي ، ولمحت فيه الشجاعة والوفاء ، فأحطته برعايتي ، سيكون مسؤولاً عن الرحلة ، بالإضافة إلى عبيد قائد حرسي . ستغادرون ليلاً هذا القصر المحفوف بالغدر ، وأنت ، يا حبيبتي ، ستتأملين الفضاء التائه على سفوح الجبال متوقعةً موجة الغبار التي تعلن عن قدومي . أرأيت ، عليّ أن أستقبل رسول أمير المؤمنين الآتي من بغداد ، ثم أوافيك » .

كان الطريق طويلاً ، ولكن أيام الفراق كانت أطول .

كانت الرياح العاتية تجتاح القصر ؛ وكان القصر قاحلاً كالحاً ، وكانت الجدران السميكة الكثيفة متقطعة بنتوءات صغيرة تفسح المجال لتسرّب النور . كان قلعة حصينة ، ولكنها لم تكن ، في رأيي ، تصلح للإقامة . وأدرك نجا ما اعتراني من خيبة للأمل ، فاقترح عبيد أن يبدأ جنوده بأعمال الترميم . ورفضت في بادىء الأمر بحجة انتظار سيف الدولة ، ولكنني أعجبت بحنوّ عبيد وطيبته . وبدا لي نجا كثير الطموح ، فلم أحببه .

ما كدت أستقر ، وأنا أشعر بالغربة والاكتئاب ، حتى دخل عبيد وقد بدت على سحنته علائم العزم والانشراح .

هناك عربون حب من أجل ياسمين، الفتاة الأجمل، عربون فريد غريب.

وبإيماءة منه، تقدّم أحد العبيد حاملاً قوقعة كبيرة من الذهب، وضعها أمامي، نظرت إلى الهديّة وقد أخذتني الدهشة، وشعرت أن سيف الدولة قد استقرّ في أعماق نفسي إلى حدّ لم أعد أشعر بوجودي. حين أمسكت بالقوقعة بين أناملي، انفتحت دفعة واحدة وسال على الأرض المجزّعة الجافة جدول من اللآلىء الدقيقة. وفي داخل القوقعة، كانت تنتظرني، ياقوتة حمراء ضخمة على شكل قلب، فريدة، معلقة بدبّوس ماسيّ رفيع.

وكان سيف الدولة قد نظم هذه الأبيات من أجلي:

**راقبتني العيون فيك فأشفقـ ... ـت ولم أخلُ قطُّ من إشفاق**
**ورأيتُ العذولَ يحسدني فيـ ... ـك مجداً يا أنفسَ الأعلاق**
**فتمنيتُ أن تكوني بعيداً ... والذي بيننا من الودّ باقِ**
**ربّ هجرٍ يكون من خوف هجرٍ ... وفراقٍ يكون خوف فراقِ**

هدأت الريح، وغلبني النعاس بدون كوابيس ولا أحلام. لم يكن يوجد بين السماء والأرض سوى هذا القصر الوعر، وانتظار سيف الدولة. لم أكن أحلم إلا بحبنا، وبابتسامته، وبالكلمات المجنونة التي كان يقولها لي، وتناثرت سحب ذكرياتي أدراج الرياح.

ـ لقد شُيّد هذا القصر من أجل الحرب وليس من أجل الحب. ليس هناك ما لديه مقدار من الجمال يليق بك.

كان سيف الدولة على مقربة مني، وقد بدا سعيداً، والجميع يضحكون حين نظر حوله، حدث كما لو أن كل الجن خرجوا من مخبئهم لينهمكوا في عملهم. سرعان ما استنفد البنّاؤون، وتجار الأثاث والسجّاد كل معرفتهم ومهاراتهم. وصلت القوافل من حلب مثقلة بالسجّاد الفارسي، والسجف الدمشقية، وحصر الصلاة الموشاة بالذهب، والأباريق الخزفية، والآنية المصنوعة من البلور السوري، والصناديق المصنوعة من أثمن الأخشاب الملأى بالنسج الحريرية، والمظلات ذات المقابض الذهبية وأدوات المطبخ والزينة المصنوعة من الفضة. كان كل شيء جميلاً، وأصبح كل شيء ساحراً. وأقبل الشعراء، والموسيقيون، والمغنون إلى القصر الذي كان يضجّ بحبنا بعد أن كان مهجوراً، ليثيروا إعجابنا بما يقدمونه لنا ويحتفوا بفرحنا الصاخب.

وكان أبو فراس يصنع الأحلام بألفاظه الساحرة :

**أراك عصيَّ الدمع شيمتُك الصبرُ أما للهوى نهْيٌ عليك ولا أمرُ**
**بلى ، أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ ولكنَّ مثلي لا يُذاع له سرُّ**
**إذا الليلُ أضواني بسطت يد الهوى وأذللت دمعاً من خلائقه الكِبْرُ**

***

**تُسائلني : «من أنت؟» ، وهي عليمةٌ وهل بفتى مثلي على حاله نُكر**
**فقلتُ ، كما شاءت وشاء لها الهوى : «قتيلك!» قالت : «أيُّهم؟ فهم كُثر!»**

وأعتقد أن سيف الدولة ، منذ ذلك الحين ، أحبني حباً أشد من أي وقت مضى ، إذ أنه شعر أني هشّة ومعرّضة للخطر ، ومن الممكن أن أختفي بعد فترة قصيرة من الزمن .

كان قرغويه ، والي حلب ، يرسل المراسلين حاملين معهم الأخبار المحلية ، ولم يكن سيف الدولة يفكر مطلقاً بالحرب ، وكان عبيد اليقظ المخلص يكرر أمام مسامعه :

ـــ مولاي الأمير ، لا تدع نفسك تستسلم إلى عذوبة الحب . إن بيزنطة هي عدوتك الأشد خطراً والأوسع قدرة . إن بيزنطة منهمكة في تجنيد فرق لا حصر لها . إن وزيرك يلح على حضورك إلى حلب . هناك الكثير من الأتباع الطامعين الجشعين ينتظرون الساعة التي يقتطعون فيها أرضاً من أجلهم فقط . أتوسل إليك أن تتخلى عن حياة البطالة هذه . هناك الكثير من التحريض : إن شيوخ البدو يثيرون الفتن على الدوام ويستمرون بالقتال فيما بينهم .

بيد أن سيف الدولة بقي ولم أجرؤ أن أطلب منه الذهاب ، وتتالت الشهور ، وكأنها لحظة عابرة ، ونحن في هناء .

ولكن ويا للأسف ، كانت بيزنطة الخالدة ، بيزنطة الغدّارة ، تعمل داخل قصر الحلبة المنسي وتحت سقوفه الخزفية المذهبة ، كانت توزع سرّاً دنانيرها البيزنطية الذهبية .



# 9

تدمر زمرّدة في علبة مجوهرات ذهبية ، واحة ثرّة تائهة في رمال متصاعدة ، بلا توانٍ ، نحو الشمس ؛ كانت تدمر في حقبة أمجادها تبعث الرعب في قلب روما ، كانت تعبد الإله بعل ، ذلك الإله الجاحد الذي لم يحفظها من الدمار . مازالت تحلم بالخلود ، وقد مرّت قرون على رحيل زنوبيا ، من خلال معالمها المحافظة على سلامة روحها . كانت تدمر تغدق مياهها الصافية الرقراقة على كل قبائل الصحراء ، المتمردين على الدوام فهم رُحّل لا يخضعون لأحد ، ولا يعرفون شريعة إلا شريعة الرياح .

كان على سيف الدولة أن ينطلق وقرر اصطحابي . وكانت هذه هي المرة الوحيدة ، في حياتي ، التي أنتزع فيها نفسي من حياة العذوبة والرخاء في القصر لأتعرّض لتقلبات الأجواء في الطرق ، والمعارك غير المتوقعة . رأيت هودجي يتقدم بسجفه الخضراء ـــ ذلك اللون الذي يرمز إلى الإسلام والأمل ـــ وشعرت بالانقباض في صدري ، ولكنني كنت على علم بأن سيف الدولة لن يغادر دوني ، وكان عليه أن يغادر .

كان علينا إذن أن نحارب أبناء القبائل ، وافتتح أميري الوسيم المسيرة وهو على جواده الرائع جهاد ، كان أبهى الرجال . لم نكن ندري حينئذٍ أن هذا كان وداعنا الأخير للقصر المهجور . وأعتقد أنني التفتّ لأتأمله طويلاً ، لأراه يختفي في الأفق خلف سحب ضبابه الرطبة . دائماً ما نحب ما فقدناه ، ولكن سيف الدولة كان هناك ، وكانت ضحكته الصادرة عن قلبه تقول إنه يحبني .

كانت القبائل المتمردة تحارب بحمية البدوي الظمآن الذي يقذف بنفسه إلى الماء ، كانت تحارب دون خطة ولا حيلة ، بل بغريزة جنسها النقية ، بالإضافة إلى ذلك التآلف الفطري مع تموجات البادية .

جعلتني صيحات المحاربين، وصرخات غضبهم القاتلة، وأعدادهم المتزايدة باستمرار ـــ فسرعان ما كان ينضم بعضهم إلى بعضهم الآخر ـــ أعيش من جديد ليلة اختطافي، وهكذا أخذت أوازن بين مدى عزلتي وبين هشاشة انتمائي إلى العالم الذي تحولت إليه. كانت هذه الصيحات، التي تمزق سكون الليل كما يقطع الفأس جذع شجرة، تنفذ إلى أعماقي حاملة معها الأسى الذي يبعث على الإرهاق، ورغبت في أن أعود تلك الطفلة الرومية لينجلي هذا الليل وتتوقف طبول الحرب، لأن سيف الدولة كان في المعترك، وكان بعيداً جداً عني، وأخذت أرتعش في صمت.

كانت المعارك تقترب شيئاً فشيئاً من قلب تدمر، وحين انبثق الفجر بألوانه المتعددة على وقار معالم المدينة، كان سيف الدولة قد استولى من البدو على إبلهم، وقطعان ماشيتهم والعديد من الأسرى والأسيرات من ذوات الحسن المتلألئ المزدانات بثروة خيالية من الحلي.

كان الأمير مغتاظاً من كل هذه الحرب التي كان راغباً عنها، فملأ أحواض المياه، ثم انسحب إلى مضربه الأرجواني الذي يرتفع على خمس ساريات، حيث كنت أنتظره بلهفة.

ـــ إني أكره هذه الحرب، فالخصوم المتشابهون ليسوا أعداء حقيقيين، إنهم يتسرّبون من حلم واحد، ويخشعون أمام إله واحد، ويرتبطون بالحقائق ذاتها، لن أشترك في الوليمة التي ستُقام على شرف انتصاري، لأني لا أستطيع الطعام ولا الشراب. ياسمين، ما أسعدني بوجودك على مقربة مني، وأنا راغب عن التفكير في أي أمر آخر؛ قبل أن أهواك، لم أندم على أي شعور قوي في القتال ولا على إرواء غليلي بعنف الحرب. كان هناك رهان بيني وبين الموت، والآن أخشى أن أكون راغباً في أن أخسره.

ـــ عليّ، لستَ ذلك الرجل الذي يعرف الخسران، ففي المعسكر ينشد رجالك المحاربون وهم يتبادلون كؤوس النصر. وبلاد العرب بأسرها تنحني أمامك لأنك لا تخشى الرهان مع الموت. أنا أعشق فيك نبل اندفاعك الذي يسحرك خلال الحرب ويخفف عنك في سويعات الحب. لا تسأم في مضجعي، أكان مثيراً أم لم يكن، فأنا لا أمنحك سوى قبلات حنان خاطفة، بينما الحرب وحدها هي التي تجلب لك الخلود.

ولدى عودتي إلى استعراض أمور الحياة، وجدت أن هذه النصيحة المؤثرة خرجت من طرف شفتي، ومن أعماق تفكيري، ولكنها حطمت قلبي.

واستسلمنا لعناق طويل عذب لا حدود له، لم يكن قلبانا يتمالكان نفسيهما، بل يحتوي كل منهما الآخر، كلاهما مندمج في المطلق.

خلبت تدمر لبّنا، ورغب سيف الدولة في زيارة هيكل بعل، لأنه كان يحب أماكن عبادة الأقدمين.

وسرنا عبر الممرات الرومانية، التي لم تطأها قدم، سرنا وقد سيطرت علينا ضخامة الحجارة المنحوتة التي ما تزال الشمس تحرقها يوماً بعد يوم. ويا للأسف! كان الرعب الحاد المؤلم في انتظارنا: كانت النساء يحيط بهن أطفالهن الساهمون المحتضرون جوعاً وظمأً، وعيونهم الشاخصة الجاحظة، تبحث عن حبّة خاوية، أو ساق جافة. أثار الشفقة في نفوسنا، نحيب الأطفال وأنين الأمهات، ومن أصوات ما وراء الموت هذه كانت تنبعث لعنات الحقد.

لم يعد سيف الدولة ينظر إلي، فقد جثا على الأرض وأخذ يوزع مياه الشرب، وانقضّ أشباه الأموات هؤلاء، كما لو أن البعث قد تم على نحو مفاجيء، التفتَ نحو الجمّالين وأمرهم بنقل المزيد من الماء. ولدى وصولنا إلى مضربنا. كانت الرأفة قد استولت على سيف الدولة فعفا عن القبائل المتمردة. وفي اليوم التالي وزع على كلٍّ من الأسرى كيساً من الدنانير الذهبية وأطلق سراحهم.

وهكذا رقدت تدمر عروس الصحراء من جديد بين رمالها المتراخية. وبينما كنا نفكر بالعودة في طريقنا نحو مأوانا في عش النسور، التائه المنعزل، جاء مراسل من قرغويه ينبئنا بأن بعثة من بلاد الروم على وشك الوصول إلى حلب. وهكذا بدأ الركب بمسيرته البطيئة بينما كان الشعراء ينشدون مآثر أميرهم البهيّ.

وازداد السير إلى حلب تباطؤاً، كما لو أن هاجساً خفياً يودّ تأخير قدومنا الاحتفالي وعودتنا إلى حدائق الحلبة الساحرة الشاهدة الأمينة على حبنا. كنا نتقدم على مراحل قصيرة تتسم بالعديد من المواقف، لأن سيف الدولة كان راغباً في لقاء شيوخ القبائل المتناثرة في كل مكان. كان ركبنا مرصعاً بما لا يحصى من تلك النجوم التي تضفي على الليل إشراقة النهار، ومع كل نجم يشق عنان ديجور السماء، كان فارس بني حمدان الشهم المعطاء يوزع على امتداد الطريق الدنانير الذهبية البرّاقة، حتى أطلق عليه الأعراب كنية «أبي الخير». حينئذٍ، أدركت أن بإمكان الذهب أن يشتري مصائر الناس. وفي تلك اللحظة بالذات، كانت الدنانير البيزنطية، في حلب، تمتلك، في الخفاء، قلوب ضعاف النفوس.





# 10

كانت حلب تصغي إلى أذان الظهر، عندما كان سيف الدولة، بعمامته البيضاء التي ينحدر طرفها على كتفيه، يتقدم على صهوة حصانه جهاد، منفرداً أمام رجاله المحاربين المشرقين بخوذهم وزردها. كانت القوة والصلابة تضفيان الثقة على خطواته في هذا الخضمّ المائج من الفرسان الأوفياء المؤزرين بالنصر.

وبدا قصر الحلبة، منعزلاً على جبل الجوشن، بانتظار سيده الذي أهمله طويلاً، يحيط به سوره الذي يبلغ طوله زهاء ستة آلاف ذراع. وعن بعد يبدو نهر قويق، ينحرف مجراه ليخترق القصر من خلال شبكة حديدية تحاول عبثاً احتجازه.

أصبح التقدم بطيئاً مع اتساع هرج الجمهور ومرجه، ذلك أن فرح الشعب كان مشرقاً بسبب عودة الفارس الحمداني. كانت تهطل أمطار من أوراق الورد الذي يفوح أريجه لدى استقبال هؤلاء المحاربين الذين لوحهم الجفاف والشمس. كانت أغصان النخيل تتفتح عن أقواس للنصر، ومن كل حدب وصوب تتصاعد أناشيد النصر في موجة من الحماس. وهرع فحول الشعراء ورجال الفكر، بكامل زينتهم، ليستقبلوا راعيهم وأميرهم.

لدى اصطباغ الأفق بلون الشفق الوردي الفاتر مَثُل التركي ابن كيغلغ بين يدي سيف الدولة. وكأنه رجل ملاحَق تائه؛ كان يودّ النطق، ولكنه تلعثم فقد كان السرّ الذي يحمله بين شفتيه، يجثم عليه. اعترف أن أحد الفرّاشين أطلعه على مؤامرة تُحاك ضد الأمير، بسبب الرشوة التي بذلها جواسيس الروم؛ كان على الغلمان الأتراك من الحرس أن ينقضّوا على سيف الدولة، حالما يجدونه في عزلة أو خلال إحدى الغارات في أرض معادية، ويسلّموه إلى الدمستق ابن فوكاس.

لم يبدُ أي انفعال على سيف الدولة، بل شكر ابن كيغلغ على أخباره الثمينة، وغادر المجلس كأنه السهم الذي يسابق الريح التي علا هزيزها، وأخذ يعدو نحو الاصطبلات التي

تضم الآلاف من الإبل والبغال والخيل، وتعرّف جهاد على خطوات سيّده، وسارع سيف الدولة بعزم إلى التعلق بصهوة جواده.

انطلق برشاقة في أرض الله الواسعة ينشد باديته وحرّيته. كان الغلمان، المثقلون بدنانير الغدر والخيانة يترصدون اللحظة المناسبة؛ ورأوا الأمير يغادر بأبهته وحيويته، في جولة منعزلة غير متوقعة بل غير مأمولة، فشدّوا الرحال بأسرهم في اقتفاء أثره، بفرحهم الضال، وسباقهم الضاري، وأنفاسهم التي تفوح بنتن الرشوة.

بينما كان سيف الدولة يرسم مواقع مضللة لخطواته في الرمال المسترخية، لا يسمع سوى هزيز الرياح ورفرفة ثنايا عباءته البيضاء، تعرّف، فجأة، على صوت عدْو خيله الخاصة الوفية، تقترب أكثر فأكثر، وقد خدعها فرسانها، حينئذٍ، دار حول نفسه، واثقاً، رائعاً، مستخفاً، والتفت قائلاً:

ــ ألقوا أسلحتكم، أنا لم أمنحكم إياها من أجل الخيانة والعار. ما أشدّ حقارتكم، ومع ذلك كنت أودّ لو أحببتكم. وطالما أن الذهب لديكم أرفع شأناً من المودّة والعرفان، فليس لدي ما أمنحكم إيّاه سوى سخطي وحكم الله. ألقوا أسلحتكم، كلها، لأنها ستحول بين خطواتكم وسبيل الفردوس.

وقام أغلبهم بإلقاء أسلحته، وقد اعتراهم الذهول من إقدام سيّدهم؛ بيد أن بعضهم ممن كان أكثر ضلوعاً في التآمر، تقدّم نحو سيف بغية أسره، حينئذٍ فتح الرجل الوحيد، وقد استشاط غضباً، عباءته النقية الناصعة، ليكشف فوق قدّه الممشوق عن حزام متألق موشى بالعقيق والياقوت اللازوردي والزمرد.

ــ إذا كان الذهب أيضاً هو ما يلزمكم، فخذوا بنصيبكم منه. وبلمسة من مهمازه، أدرك جهاد أن عليه أن يتوارى، فانقضّ في وثبة عنيفة حاملاً معه فارسه الخائب الظن والذي كان يزرع على الرمال الناعمة ما في أكياس الذهب الموجودة في عيون سرجه، والأحجار الكريمة المتعددة الألوان من حزامه بحليّها الفريدة. كان الخونة ــ وقد تملكهم الجشع هذه المرة، كما لم يتملكهم كل مرة ــ يتشاجرون فيما بينهم على غنائم الرمال، ويجثون مستجدين الألوان في الخضمّ الأصفر الذي يلعنهم. وبينما كانوا يشبعون أطماعهم، كان سيف الدولة يمخر عباب الكثبان الرملية المضطربة المتواطئة والوفية، بمنعطفات عابرة، تقوده إلى سبيل النجاة.

عاد الأمير ليلاً إلى حلب، وأحاط الحرس الديلميون بمعسكر الغلمان، بينما ذهبت القوات العربية لتقبض بين الرمال على الخونة الذين ما برحوا يحصدون عطاءات ضحيتهم.

أمام جميع الغلمان الذين قُيّدت أرجلهم وأيديهم بالحقد واليأس ، وقف سيف الدولة المؤمن بالله والمدافع عن دين الإسلام صائحاً بصوت مثل هزيم الرعد :

ـــ ليس هناك حكم أعظم من حكم الله : إن الجحود والخيانة هما منكران في نظره عزّ وجلّ . بأسلحتكم التي كنتم سترفعونها بوجهي ، بوجه سيّدكم ، سيتم قطع اللسان الذي تلفّظ بالموافقة المشؤومة ، وسيتم بتر اليدين اللتين حملتا السلاح في غير موضعه ، وبتر القدمين اللتين قادتكم إلى طريق الشر . وهكذا ستصبحون مشوّهين ، لأنكم أنتم شوّهتم أنفسكم بحرمانها من أسمى فضائلها المتمثلة بالوفاء والعرفان . وسيتم قتل أربعمائة أسير رومي في زنزاناتهم القاتمة للتعويض عن كفر أولئك الذين اجترؤوا عليّ .

ـــ ياسمين ، مرت لحظة فريدة ظننت خلالها أني مقبل على الموت . كان لهاث مطايا الغلمان يلامس عباءتي البيضاء . في هذه اللحظة ، على قصرها ، مرّت في مخيلتي ربوعي الممتدة من لاوديقية[1] إلى طرابلس ، ثم كل البادية الحارّة في سورية ، والفرات المخضوضر ومياهه المندفعة والأعمال البعيدة لكيليكيا في أرمينيا ، وكل الحصون التي تصاعد فيها دخان المعارك في مرعش وملاطية وسميساط والحدث ... بيد أن الرؤية الرائعة التي طغت على كل شيء لا يمكن إدراكها إلا بالروح ذلك أنها كانت أسرع وأقصر من أن يعبر عنها اللسان . ففي هذه الهنيهة العابرة ، اجتاز شبح الموت بصري ، إلى درجة الانبهار ، بيد أن وجهك أتى ليدفع بكل شيء خلفه ، وعزلني خمارك عن كل ما يقلق في الواقع . اعتقدت أني قد قتلتُ فعلاً . ففي نشوة أعماقي ، رأيت كل حوريات الجنة ترغبن في أن يكن شبيهات بك ، حينئذٍ ، وددت لو عشت قليلاً أكثر ، حتى آتي لرؤيتك .

ضحكت وقلت :

ـــ وأية حورية كانت أشبه بي ؟

ـــ أيّاً منهن ، حقّاً .

ـــ ما أسعدني ، يا عليّ ، برؤيتك هنا ، لقد استبدّ بي الرعب حتى سمعت نفسي وأنا أصيح وحدي . جاءت مريم لتشد أزري بكلمات فيها لطف متملّق ، ولكني لم أستطع أن أتحمل ثرثرتها الفارغة المملة . ففي ساعات المعاناة الشديدة ، يفضل المرء العزلة .

ـــ أنت لا تحبين مريم ، مع ذلك فهي وحدها من تستطيع إدارة هذا الحريم المفعم بالغيرة والتآمر .

---

[1] هي مدينة دينزلي في تركيا اليوم .

ـــ لست مهتمة بمريم ، بل بابن كيغلغ ؛ فأنت مدين له بحياتك ، وعليك مكافأته .
ـــ أنا لا أحب ابن كيغلغ ! أتعتقدين أنه وشى بإخوانه وأبناء قومه بقصد الإخلاص لي ؟
ـــ ولكنه أنقذك ، على الأقل .
ـــ كلا ، يا ياسمين ، سأغمره بملكية الأرض ، وسأمنحه المئات من العبيد ، ولكنه لن يحظى بتقديري قط ، فهو لم يرتبط بي إلا لاقتناعه بأنه سيبقى ذا شأن ، وليس هذا الارتباط بسبب وفائه لي .
ـــ وما أهمية ذلك ، فأنت الآن على مقربة مني ، وأنا سعيدة ، وسأمنحك طفلاً ، ربما كان غلاماً يشبهك ويشبهني ، فيمثلنا نحن الاثنين معاً . سيكون الأعظم والأجمل ، وسنهيم في حبه .
ـــ ياسمين ، حبيبتي ، لن يكون أطفالنا ، دائماً ، هم الاستمرار الذي نرغب فيه نحن . سيكونون ما اختاروا هم أن يكونوا ؛ وسيحبّون ما قد لا نحبه نحن ، فحياتهم ملك لهم ، ولن تكون تحقيقاً لطموحاتنا نحن ، بيد أننا سنهيم في حبّهم .

حين غادرني سيف الدولة ، شعرت بانقباض في صدري يكاد يخنقني ، أنا لا أرغب في غلام ، لأن ولدي لن يعتلي قط عرش بني حمدان ولن يكون قط أمير الأمراء ، ولا أقدر المحاربين . هناك في ميافارقين ، زوجة سيف الدولة الشرعية ، الفارسة المسلمة الحقّة ، ذات النفس الكريمة ، والعقل الناضج ، امرأة بعيدة ولكنها باسلة ، تنشىء ولدها ، أبا المعالي ، الوريث الوحيد لعرش بني حمدان الذهبي .



# 11

دخلت بعثة الروم إلى حلب من باب أنطاكية بالتؤدة المعروفة عن أولئك القادمين من البلدان النائية .

وشهدت الأسواق التي تشعّ بأنوار مصابيح الشمع وفوانيس النفط حشود المتسكعين من مختلف الأجناس : التجار الخارجين من خاناتهم ، تاركين أعمالهم وقد استبد الفضول بهم ، وأصحاب الحوانيت في سوق الحبال ، وخان الصابون ، وسوق العطارين ، والنصارى ، واليهود على بغالهم غير المسرجة ، والصبيان الباحثين عن الجديد مما يدخل الإثارة إلى نفوسهم ، والعبيد ، والنساء العفيفات الملتفات بالخُمر المحتشمة التي تحجب قوامهن ، والأخريات بخمرهن الشفافة وهن يحاولن عرض دلالهن وقصص غرامهن .

كان يتقدم البعثة ، عدّاؤون قصار الثياب يضعون الأساور الذهبية في معاصمهم والخلاخيل فوق أعقابهم ، والحلقات الذهبية على صدورهم . ودون أن يصدر عنهم أي صوت ، كانوا يفرّقون الجمهور من خلال بريق ذهبهم وصليله .

كان كبار رجال الدولة لدى الباسيليوس قسطنطين بورفيروغنيتس ، في موكبهم المهيب ، يتقدمون بصمت وقور ، لا ينظرون إلى ما هو حولهم ، إذ لا شيء يمكنه أو يجب أن يبهر بيزنطة الإمبرطورية . ومن أجمل الخيول المطهمة من اليمن والجزيرة الفراتية ، كانت الجياد الشقراء يمتطيها الرؤساء الخمسة الأشداء المتعاظمون . كانت السروج الأرجوانية السابغة المزدانة باللآلئ الصغيرة تغطي المطايا . وكان الفرسان يرتدون تلك العباءات الخاصة بعلية القوم عند الروم والتي كانت من الحرير الزاهي ، مثقلة بالأحجار الكريمة من شتّى الألوان ، وسيوفهم متدلية ، موشّاة بالياقوت القرمزي ، لون الحرب والدم .

كان حاكم المدينة يتقدم الركب ، بنظرته المتعالية . وكان يحيط به كل من كاتب العقود الأكبر ، أمين سر الحبر الإمبرطوري ، بوجهه الخالي من التعبير ، والترجمان الأكبر المعتز

بمهمته . وكان يتبعهم حاجب دمستق المشرق ذو الجمال الآسر وإن كان قاتماً، وفي خاتمة المطاف قاضي المعسكر بدثاره الحريري الأزرق الموشّى بالفضة .

كان الحرّاس المرافقون يجرون خلفهم وكأنهم جمرٌ متوقد من الذهب؛ فالألبسة يشع منها بريق الذهب ، كما أن الدروع والخوذ تعكس بريقها الذهبي ، أما الرماح الذهبية فإنها تنضم إلى كل الذهب الحار من أشعة الشمس التي بدأت تميل نحو المغيب .

استقبل سيف الدولة وفد الروم في حدائق الحلبة التي تبعث على البهجة بربيعها وأريجها ، على عرش يتلألأ بالأبهة . كان رأسه محاطاً بتاج يعكس شعاع كوكبة من الأحجار الكريمة .

كان سيف الدولة محاطاً برجال بلاطه من المماليك وقادة الجيش وولاة جميع أعماله ، وشعرائه ، وفلاسفته ، وكتبته ، حين استقبل رسل بيزنطة الفريدة ، بأبهة يعجز أمامها الوصف ، تحت خيمة عملاقة تقوم على دعائم يبلغ ارتفاعها خمسين ذراعاً .

كان خشب الألوة[1] يحترق في المباخر النحاسية الصفراء، والجو يعبق بعطور العود والناردين[2] والعنبر .

ومن كل صوب ، كان ثلاثة آلاف من الخصيان في بهاء لباسهم الرسمي ، مصطفين كأنهم في رقعة شطرنج ، يقفون بسكون كأنهم أصنام أثرية منسية منذ غياهب الزمان .

وتقدّم نجا ، وقد بدا عليه الغرور أمام هؤلاء الذين طالما انتصر عليهم، وكان يرتدي لباساً من الأطلس الصيني :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، إن الأمير سيف الدولة الحمداني يرحّب كل الترحيب بقدومكم .

انحنى حاكم المدينة بظهره وكتفيه وأجاب بكل احترام :

ـ إن الباسيليوس قسطنطين بورفيروغنيتس ، إمبرطور الروم المعظّم ، يحيّي سيف الدولة الحمداني ، القوي ، العادل ، المنتصر ، ويتمنى له الرخاء والازدهار .

أتى الوفد ليفاوض على وقف القتال وفدية الأسرى ، وعلى رأسهم ابن دمستق المشرق الأعظم ، قسطنطين فوكاس . وكما جرت العادة دائماً فإن فدية ذوي الشأن من الأسرى تتطلب مفاوضات طويلة وشاقّة ؛ بيد أن لا شيء يحول دون بذل الترف والبذخ اللذين يفوقان الحدود من أجل الحفاوة البالغة .

---

(١) الألوة : عود طيب الرائحة .

(٢) الناردين : نبات طيب الرائحة يقال له أيضاً السنبل الرومي .

على الموائد المصنوعة من الأبنوس المرصّع بالعاج ، كانت تتدافع الأطباق الذهبية في تناظر متكامل . وكانت الجديان المحشيّة تسبح في الماء المملّح ، والخرفان محاطة بالكماءة الصحراوية ، والبط المطهوّ بأعشاب الطرخون ، والأسماك المطيّبة بالتوابل ، والتين المحلّى ، والقشدة بالعسل والناردين ، وكان في الأباريق الذهبية عصير الرمان المعطر بأوراق الورد . أما لكمّثرى الأصفهانية ، وبلح الموصل ، وعنب بعلبك فكانت تطفح في أقداحها المتسعة المصنوعة من أنقى البلور السوري .

كان الليل مناراً بالمشاعل التي تبعث الضوء في الظلمة بزفير نارها ، والليل بطراوته العذبة يتمطّى في الموسيقا البطيئة المتراخية التي ترددها الناي والطنبور والدف والمزهر . كانت الراقصات يتألّقن بأثوابهن الموصلية البرّاقة التي تخرج بألوانها عن المألوف ، وجمالهن المثير ، وحركاتهن المعبرة عن الألم والرغبة ؛ وكن يعرضن ، من خلال عيونهن المسودّة من الكحل ألوان السحر المثير للشرق اللامبالي . وكأن كل شيء متعمّد ليخلب الألباب ، وحين غابت الموسيقا ، أخذت نوافير المياه الفضية ، والينابيع الرخامية الوردية والأحواض المرمرية الأرجوانية تعيد انبعاث رذاذ مياهها بعذوبة صوت اللآلىء الملقاة على روضة من المرمر .

في اليوم التالي ، وعلى جبل الجوشن ، كانت قوات سيف الدولة ، تنتشر في مشهد يأخذ بالألباب . كان الفرسان ، بخوذهم الفضية ، وأحزمتهم المصنوعة من الدمقس ، وألجمة خيلهم الموشّاة بالمجوهرات . وأقربة سيوفهم المرصّعة ، وسروجهم المطرّزة بالذهب ، يتمايلون على منحدرات الجبل كما تفلت أشعة الضوء من الكتلة الشمسية . فلم تكن تسمع إلا صوت سنابك مطاياهم . وكان المحاربون الذين يمتطون ظهور جمالهم وقد أخذتهم نشوة كبرياء باديتهم الصهباء ؛ أما المشاة بسيوفهم العريضة المرفوعة ، فقد كانوا يتتابعون وهم يلوّحون برايات أميرهم ، وكانوا من الترك أوالزنج ، أو البربر ، أو المصريين .

عادت البعثة إلى المدينة التي يتعهدها الله برعايته ، وهم مثقلون بالأقمشة الثمينة ، وحلي الموصل ، وعطور شبه الجزيرة العربية . ولم يتم عقد أية هدنة بين الفريقين ، فبيزنطة مازالت تحافظ على كبريائها ، والحمدانيون لم يخسروا شيئاً .

بقي قسطنطين فوكاس الأسير المتميّز مريضاً ، وكان سيف الدولة يعوده ويعتني به . وعرض أبوه دمستق المشرق الأعظم مبلغاً باهظاً مقداره ثمانمائة ألف دينار ذهباً مع إطلاق سراح ثلاثة آلاف أسير من العرب ، مقابل عودة ولده . ولكن ، واأسفاه ، كان الأمير يرغب في المزيد ، فالرجل يمثّل بجماله ورجولته ، بيزنطة الذبيحة المهزومة .

# 12

على الدوام، كان يسيطر على الجو، توقف في الزمن، وبرهة من السكون، وتساؤل صامت، حين ينسحب سيف الدولة إلى قاعة الاجتماعات المبلّطة بالفسيفساء الصمّاء التي لا تتسرب من خلالها قط أية كلمة شاردة أو فكرة مباغتة.

كانت العشيّة تتقدم، متخفية تحت ستار النضارة العابرة للخريف المبكّر، وفي الحجرة المغلقة ذات الجدران المحكمة، ومن خلال الأحاديث العميقة والسطحية؛ كان يتقرر مصير العالم، على نحو يعجز عنه الوصف.

ظهر سيف الدولة فجأة وكان شحوبه البالغ يساعد في كظم غيظه:

ـ أيّ استهتار بالعمل الإنساني، وأية جهود ضائعة، وأيّ إنكار للمعروف! إن من لا يفهم معنى الكلمة الطيبة والبادرة الحسنة، عليه أن يخضع لحدّ السيف، البتّار الذي لا يرحم. ومن استغلّ اسم الله، أو رسله، أو الإيمان ليتمتع بخيرات هذه الدنيا، سأضعه أمام عدالة الله. إن هذه القبائل المتمرّدة، التي أعدت إليها نساءها على النوق وهن مزدانات بقلائدهن، والتي أطعمت أطفالها الذين كانوا يبكون من آلام الجوع، إن قبائل السلب والنهب والعصيان هذه، تزرع بذور الفتنة. إن قرامطة حمص، الذين طالما عفوت عنهم، سأعمل على تجفيف ينابيعهم الصافية التي ينهلون منها قوة فتنتهم، ورفضهم طاعتي.

ـ ولِمَ لا تهيم هذه القبائل، التي لا يتصدى أحد لإزعاجها، على وجهها، باحثة عن الماء، وهي مطمئنة حرّة، ملتحفة السماء المرصّعة بالنجوم، ومفترشة الأرض الممهدة تحت وطء أقدامهم؟

ـ لعلك، يا ياسمين، تنسين طموح بعض الناس. إن لهذه الفتنة طابع سياسي وديني. لقد تمّ اختطاف حاكم حمص واحتُجز على يد القرامطة بقيادة أحد الدجّالين. وهذا الرجل يحمل اسماً في غاية الغرابة: ابن هرّة الرماد؛ وهو يحيط نفسه بالكثير من الغموض مما

يجذب عامة الناس الذين يجدون في هذا الرجل العليم ببواطن الأمور والبعيد المنال كل ما اجتمع في صميم أوهامهم. وكان لا يطّلع على وجهه المقنّع باستمرار إلا القليل من مريديه المقرّبين. وهو يزعم أنه يتلقى الأوامر من الله.

ــ ألم يكن المتنبي، وهو من بلاطك، يدّعي النبوّة؟

ــ نعم، ولقد سبق وقلت لك ذلك، ومن هنا جاء لقبه. كان ذلك منذ حوالي خمسة عشر عاماً، وفي هذه المنطقة نفسها في حمص. قام بمحاولة للتمرد قَمَعَها حاكم المدينة. لقد تم حبس المتنبي، الذي ادعى النبوة على الطريقة القرمطية، ثم أُطلق سراحه ليصبح أعظم شعراء عصره.

ــ على الرغم من عمق إحساس المتنبي وعبقريته التي لا مثيل لها، فإن الطموح يأخذ بلبّه.

ــ أتعلمين، يا ياسمين، أن القبائل لا تعرف سوى شريعة التقاليد والأعراف، ولكن المتنبي الذي تحضّر أدرك شريعة المال.

ــ وماذا يريد هذا الشخص العجيب الذي يتسكّع في ضواحي حمص؟

ــ هذا الرجل يرتدي عباءة سوداء ويمتطي ناقة شهباء رائعة، عملاقة في حجمها. وحين تبدأ هذه الناقة سيرها، تقود حركة القطعان بأسرها. وهذا العليم ببواطن الأمور، الذي يريد أن يجعل من نفسه إماماً، تلقّب بالهادي. وهو دائماً ما يرفض لقاء العدو، حاملاً سيفه، ولا أن يمتطي حصاناً، فهذه هي الأوامر التي تلقّاها من الله؛ فمن خلال تحرّكات متقنة شاسعة الأبعاد، كان يمدّ يده نحو الأفق، فيهرب الأعداء الموجودون هناك، وكأن قوة خارقة للطبيعة قامت بتشتيتهم. هذا ما ترويه عامة الناس التي سيطرت عليها النشوة وآمنت بكل أساليب الاحتيال التي يقوم بها لأنها قررت ذلك الإيمان، فأخذت تغمر الدجّال الراضي عن نفسه بالذهب، وأصبحت كلماته معصومة عن الخطأ، فهو رسول الله من أجل نشر حكمه السامي في عالم مدنّس بالكفر.

ــ لعلّه سمع حقاً أصواتاً ربّانية أو كان حقاً طاهراً يحاول تزيين الأمور الدنيئة لأنه يراها على نحو آخر.

ــ إن عجلة الحياة مستمرة في الدوران، وهي تسحق في أسفلها داخل الوحول القاتمة المعذّبين في الأرض والذين أهملهم القدر، بينما يتنسّم الآخرون الجاثمون في الأعالي ألوان الحياة اليسيرة ونسائم الرخاء. والعجلة، يا ياسمين، ستستمر في الدوران وهي تحمل في طيّاتها الظلم والفساد. لا شيء يمكنه أن يُصلح الكون؛ فالسلطة تجعل ضعاف النفوس سواسية أمامها، لأنها تفسدهم، أما الأقوى فهم قلّة، بيد أن هناك فريقاً منهم لا يمكن

تحديده لن يدرك الأمور قط ، لأن عجلة الحياة ستستمر بالدوران . وهي تخفي في مسيرتها عيوب الناس .

ـــ وهكذا إذن تم أسر حاكم حمص على يد ابن هرّة الرماد ؟

ـــ نعم ، والفدية المطلوبة جديرة بفك أسر هذا القائد العظيم : أكياس الذهب والفضة ، مع التأكيد على ألف رأس من الخيل ، ومن أجملها التي تخص حرس المدينة ، وكذلك « العروس » أجمل فرس في بلاد العرب ومهرها الذي مازال رخص العود ولكنه على درجة من الجمال في خطوطه المرسومة كأنها نقوش من المرمر .

ـــ سترحل مرة أخرى نحو حرارة جنوبي البادية المشرقة التي تنعكس عليها أشعة الشمس الحمراء التي لا تتراجع أمام شحوب الخريف .

ـــ سأمضي إلى جنوبي حمص ، على طريق دمشق ، وهناك سألتقي بالقرمطي ورجاله ، وسأتحدث إليه بحقيقة اسم الله ، وعن عدالته المعصومة عن الضلال ، وسأؤكد على غضبه ، قبل أن أقوم بقتله ، إذ هكذا يجب أن يموت أولئك الذين استهانوا بشريعة الله . سأنطلق بعد ثلاثة أيام ، إذ ستشهد الحلبة التي لا تفتر مشاغلها ، تحت قبابها المنخفضة المعطّرة بالأريج النافذ إلى الأعماق ، وعلى طنافس قونية المحوكة بالذهب ، وعلى أنغام موسيقا السلسبيلات المفضضة ، أولئك الآتين عبر جبالهم البعيدة ، أتباعي من أمراء الأرمن يتوافدون في بهاء وكبرياء ، دون أن ينسوا خضوعهم لي .

على رأس هذا الموكب الذي اخترق تقلبات الأيام المستمرة ، كان يتقدّم أمير الأمراء وعليه مظاهر الكبرياء والقسوة ، وكان يطلق عليه أيضاً لقب الملك بقردوني ، ملك أرمينيا وجيورجيا ، وكان يتبعه على مقربة منه ، الآخرون بدثرهم القصيرة المعقودة الزاهية بألوانها ، معبّرين عن هذا التكوين الإقطاعي حيث يمتلك الأمراء الأرمن ـــ العرب نصيباً كبيراً من الأرض ، ويلعبون دوراً في المجال السياسي .

أدرك سيف الدولة أن هذه الزيارة المصطبغة بالأرجوان والولاء تنسجم كل الانسجام مع عقيدة ضيوفه الذين كانت ذبذبتهم السياسية ، تكاد تهدد تارة بيزنطة المنيعة ، وتزعزع تارة أخرى الحمدانيين الأقدر على عزائم الأمور . وهكذا طالب سيف الدولة بحصون منيعة عربوناً لهذه الصداقة ؛ كان يرغب في حرية مرور قواته العسكرية ، وعمّاله ، ورسله عبر طرق أرمينيا دون أن يتعرضوا للإزعاج .

عاد الموكب الأميري كما أتى بخطواته البطيئة نحو أراضيه النائية لقد أذهلهم الحمداني بحفاوته وكرمه، ولكنهم على الرغم من تلك الهدايا الباذخة التي كانوا ينوؤون بها، والمفعمة بعطاءات سيف الدولة السخية، غادروا القصر فاقدي الإخلاص الذي حل محله التوجّس والخشية.

كانت مقدمة الجيش البدوية تفتتح المسيرة بقرع الطبول الذي يخترق السمع بحركته الإيقاعية. وكانت رايات سيف الدولة تخفق شامخة في الأفق. وكأنها تشارك في بشرى النجاح المقبل. وعلى أثرهم ألفان من أفراد الجيش النظامي، رابطو الجأش، ماضون في مشيتهم اللامبالية بالمخاطر. لم تدم الحملة سوى تسعة أيام. وفي ساعة المغيب اخترق الجيش المظفر الأفق من خلال ثناياه المتراصفة. وعلى ضوء المشاعل التي أخرجت الليل من ظلماته الكئيبة، دخل سيف الدولة حلب التي كانت تنتظره بجماهيرها التي كانت تموج بأفراح نصر قائدها المؤزَّر.

وعلى سنان أحد الرماح كان رأس القرمطي يجفّ في الهواء.

— ياسمين، كم خطرتِ ببالي، مع إشراقة الفجر الساكن، وهروب الليل المرتعد للفراق. كنت دائماً في خان للقوافل يمنح الراحة في الليل للدوابّ والناس، وفجأة استيقظت على أثر حلم، لم أعد أذكره، ويا للأسف. خرجت بتؤدة إلى الساحة الداخلية الراقدة المستقرة، السابحة في هذه الألوان التي تمزج النهار بالليل، والوردي بالرمادي. وفي وسطها بركة مستديرة مفعمة بمياهها التي تفرّ على شكل ثنايا مع هبوب النسيم العليل.

«على حافّة البركة، كانت أكواب متماثلة في حجمها وشكلها متراصّة على المدار الضيق المستدير. جعلتني هذه الأكواب أتأمّل في الأيام التي نحياها والتي تتشابه في الزمان والمكان. تجرّعت في كل كأس السلطة والمجد، وعرفت ما يبذله الرجال من مشقة للانسجام معها، رأيت بعضهم يموتون أبشع ميتة وضيعة، وآخرين يرحلون ورؤوسهم متوجة بأكاليل الغار. كم تكلّل كفاحي بالنصر الذي كنت كل يوم أتجرّع كأسه حتى الثمالة، ولكن، وا أسفاه لم يرو أي كأس ظمئي، على الرغم من أن تلك الكؤوس كانت طافحة بأسرها.

— وهكذا، لم تدرك السعادة قط، واستسلمت نفسك لغزو العالم دون أن تفعم قلبك بالبهجة.

ـ هناك ألوان من الفتوحات لم أتمكّن منها إذ كان علي أن أخضع لها، لا أن أقودها. فحينما رأيتك في هودجك ذي الستائر الوردية، تائهة بين الكثبان الشاحبة من الظلمات، رأيت فيك ذلك الإناء المقدس المقدّم في عاديات الليالي، وشدّة المعارك. وجاء عودك الرخص ليطرد لهفتي وشربت نخبك دون أن أرتوي. ولدى كل عودة مظفّرة وكل أنشودة نصر، كان قلبي يبقى منقبضاً إلى أن ألقاك، وأتحدث إليك، وألامسك، وأسمع ضحكتك، لأنني دائماً ما أخاف من أن أفقدك، فالحياة حافلة بتلك التي نحب.





# 13

يمكن للمشاهد، عن بعد وفي أية بقعة من بقاع حلب الشهباء أن يرى القلعة المحاطة بجدرانها التي تلتف حولها بشكل بيضاوي؛ وكأنها حصن منيع، كان الارتفاع الطبيعي لقمتها الصخرية يعلو عبر العصور الغابرة، حيث تراكمت معابدها التي تعود إلى الحضارة الوثنية. والقلعة تشرف على كل ناحية، ومن كل ناحية لا ترى سواها بسحرها الغامض. لا حصر لأمجادها ولا لآلامها، ولكنها على ثقة أنها ستبقى مشرفة على الأرض بأسرها أبد الدهر.

في أعلى أبراجها الإسلامية، المشيّد على أنقاض أبراج أخرى تعود إلى العهد الإغريقي، كان يعيش رجل هزيل عجوز، بارز الأنف، تجتاز يديه الأوردة المزرقّة، يحبّ تأمل النجوم لأنه يعتقد أنها تتجول في عنان السماء لتتلاعب في مصير البشر. لم تكن عينا قيس لتخدعه قط. وكان يحيا ليرصد النجوم.

قال:

ـــ أنت، يا أكثر الأمراء شهامة، لا تبتعد بعد الآن وأنت على صهوة جواد القتال، وأعد سيفك إلى قرابه، لأن سهيلاً، النجم الساطع، يبتعد عنك، بينما يجتاح زحل، الكوكب الباهت، مجال طالعك.

كان قيس يهوى سيده وكي لا يعود إلى رصد النجوم، فقأ عينيه، وبقي ينتظر الموت سنين طوالاً في برجه الواسع المنزوي، وهو يصلّي.



# 14

في قاعة الاحتفالات ، كان الفارابي ، وهو الفيلسوف والموسيقار ، يستنهض الجنّ بسحر آلته . وكان إذا قام بتفكيك أوتارها وأعاد تركيبها ينتقل من الأنين الشجي الذي تتفطّر له القلوب إلى الضحكات التي تتفجّر فرحاً ومرحاً ؛ وكأن عبقريته تنفلت من أنامله التي تتراقص على الأوتار المهتزّة .

كما تبزغ هالة الصباح في ريعانه ، أقبلت جوقة الموسيقيين وعطرهم يفوح حتى يصل إلى القباب المبتهلة . كانت الناي تبكي ، والطنابير ترتعش بأوتارها الذهبية ، والأعواد والدفوف والمزاهر تبدأ بعزف مقدمة أكثر الأغنيات كآبة : الوردة والبلبل .

— ياسمين ، سأحبك ما حييت ، لأن قلبك يفتح أمامي ، وحده ، باب الجنّة ، ياسمين ، لا تتوقفي أبداً عن حبّي . لأن ذلك سيكون هو السبب في أفول نجمي .

وطغى صوت جيداء على همسات سيف الدولة التي لا تنتهي ، كانت تغني : أنا البلبل العاشق الأول بين جميع الطيور ، وأنت الوردة ، الأجمل بين جميع الزهور .

أحبك ... أحبك ... ولكن من ذا الذي سيلامس وريقاتك الممتلئة بالحياء ، لتتلقى قبلات ريشي الملتهبة ؟ إني أهيم بك يا وردة ، ولكن وا أسفاه ، فأنا عاشق الحب المحال .

ويتردد أنين الجوقة :

وا أسفاه ، أنا عاشق الحب المحال .

أخذ سيف الدولة يفكر بنبوءة قيس . وكان مظهره الهادئ يخفي قلقه حول الغد المجهول ، واستمرت جيداء بصوتها الشجي :

أنا الوردة ، أكثر العاشقات خضوعاً ، وأنت البلبل أشد العاشقين هياماً ، ولكن هناك في الأعالي ، على أغصان أشجار السرو ، تذهب تمنياتك أدراج الرياح ، وأنا حبيسة هنا أتنهّد

بين الأدغال ! آه أيتها القبلة المأمولة ! أيتها القبلة المحرّمة ! أيتها القبلة المفقودة ! نحن ، واأسفاه ، مرضى الحب المحال .

وتنشد الأصوات الفاترة :
نحن ، واأسفاه ، مرضى الحب المحال .

تأملني سيف الدولة بنظرة ملأى باللطف والحنان ، ولم يكن هناك ما يكشف ، خلف هذه الجبهة الملساء المحدّبة ، عن تلك الرغبة الجامحة في حملة جديدة يتحدى فيها أسطع النجوم .

كان إيقاع الناي مع الدفوف والمزاهر والطنابير يتباطأ ضائعاً بين الانفعالات .

آه ، أيها البلبل ، فلنستمر في الحب : وليست القبلة هي مفتاح الفردوس . آه ، يا وردتي ، فلنحب مهما كان الأمر : ففي القلب وحده يزدهر الفرح ، والفرح نشوة الحياة . فلنحبّ ! ولنحبّ ! فنحن السعداء في الحب المحال .

بينما كان صوت جيداء يتفجر بالبهجة ، ارتفعت السجف المنسوجة من البروكار ، على حين غرّة ، وألقى الخصيان بأيديهم على خناجرهم المخفية بين طيّات أحزمتهم ، ولكن من أجل جعلها بوضعية تحية الاحترام ؛ انحنوا حتى كادوا يلامسون الأرض ، ودخل نجا ، غلام سيف الدولة المفضّل ، وكأنه هبّة ريح قادمة من الشتاء ، مزعجاً كل من كان في طريقه ، وأسرع مباشرة نحو سيف الدولة ، ممتقع الوجه ، منخفض الصوت ، شارد النظرة :
ـــ قسطنطين فوكاس يحتضر ، لقد سمموه .

نظر سيف الدولة بعينين متسائلتين ، مخفياً دهشته :
ـــ يجب أن أعرف ، قبل صلاة الفجر ، من الذي سمّم أسيري .

انحنى نجا وانسحب ، وتابعت الجوقة المتراخية أنغامها الشجية . إننا ، واأسفاه ، مرضى الحب المحال .

كان عيسى الرقي أشهر الأطباء وأرفعهم مكانة . كان نصرانياً ، وقد حصل على تراث من العلم والمعرفة ، ورثه عن أبيه ، زادته سنون عديدة من المعارف والتجارب في اكتشاف الجسم البشري .

بحركة ورعة صامتة ، غطّى عيسى الرقي وجه الميت الشاحب وغادر القاعة ، دون أن ينبس ببنت شفة . جرّب كل ترياق ناجع ممكن ، وحاول إنعاش الجسد المختنق ، بيد أنه تعلّم

ممّن حوله من المسلمين المؤمنين بالقضاء والقدر ، أن لدى ولادة الإنسان يرسم الله بكتابته الإلهية على جبهته موعد اللحظة الحاسمة التي تعلن وفاته .

وسرعان ، ما ترامى صوت أذان الفجر من مئذنة إلى مئذنة ، وأخذت رطوبة الليل تتلاشى مع عذوبة الصباح . رأى سيف الدولة قسطنطين فوكاس يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وتلاقت نظرات الرجلين خالية من الحقد أو الانفعال . لأن كليهما لم يعودا يفكران إلا برحمة الله .

في أحياء حلب المسيحية ، المتعرّجة بأزقتها الضيّقة كأنها متاهة تتلاشى عبر متعرجاتها ، وفي بيت منخفض أهملته الشمس ، واجتاحته الرطوبة والقذارة ، كان يعيش رجل أعور قبيح يخيف الأطفال بقهقهته البشعة . اجتاحت جلد خدّه المسمرّ الدمّلة المعروفة باسم حبّة حلب . وكان يصدر مع كل شهيق وزفير صفير عن رئتيه المصابتين بمرض عضال . كان الرجل قد خبّأ بعناية فائقة الدنانير الذهبية الرومية في أشد الزوايا ظلاماً من هذا المنزل الموبوء ، ولكن لهفته الشديدة على إعادة حساب ذهبه ، جعلته يفضح نفسه ، رغماً عنه ، فكشف الحسّاد ممن كانوا حوله سرّه الكامن .

كان حنّا قد تلقّى ألف دينار ذهبي رومي من والد ضحيته مقابل إعداد الجرعة القاتلة التي أودت بحياة الأسير الإمبرطوري . وكان برداس فوكاس وهو الشحيح الشديد الحرص ، قد فضّل فقدان ولده الشقي على الخضوع لشريعة الحمداني المنتصر .

لم تفارق سيف الدولة شيمه في الكرم والحلم ، فكتب بخط يده كتاباً إلى دمستق المشرق الأعظم ، أما جثمان قسطنطين فقد تم تسليمه إلى سكان حلب من النصارى ليتم دفنه وفق شعائرهم . كان الجثمان ملتفّاً بكفن من أفخر أنواع القماش ، كما جرت العادة في الإسلام ، وموضوعاً في تابوت من خشب الأبنوس المرصع بالشبه المذهّب ، وأذيب عليه صليب ذهبي رومي مترامي الأبعاد .

تمّ عرض التابوت في كنيسة القديس ميخائيل ، وتقاطرت الجماهير الفضولية ، بصمت ، على البلاط المصنوع من الفسيفساء بخشوع يحمل في طياته سكون الموت ورهبته .



# 15

من خلال ماضيها العريق الذي يتّسم بالكثير من الحظوة، كانت حلب تتمتع بتلك الجغرافيا المتناغمة التي تضعها في موقعها بين المشرق والمغرب، وكان العديد من القوافل، التي يتألف كل منها من ألفين أو ثلاثة آلاف من الإبل، التي يرحل كل منها ثلاث مرات في العام نحو أقاصي المعمورة. كانت قافلة المشرق تبلغ العراق والهند والصين؛ وتندفع قافلة الجنوب حتى الحجاز واليمن؛ أما قافلة المغرب فتطوف مصر وإفريقية لتبلغ الأندلس، وكانت قوافل أخرى تتجرأ بالمخاطرة حتى أواسط بلاد الروم.

ولدى عودة هؤلاء الآلاف من التجار المغامرين، وقد اكتظّت جيوبهم بالثروات، بعد طوافهم الطويل، كان كل قائد قافلة يهدي الأمير سيف الدولة، هدية فاخرة، نادرة الجمال، باهظة الثمن، عربوناً لولائه ووفائه، وكانت الأسواق تحفل بالعديد من السلع المجلوبة من شتى الأقطار، فتغدو حلب مقرّاً للتوزيع على آسيا الصغرى وأرمينيا ومصر.

أقبل سيف الدولة لرؤيتي، ومعه عبد قدّم لي صندوقاً فضيّاً صغيراً يحتوي قطعة قماش ذات بريق متلوّن.

ـــ أردت الاحتفاظ لك بهدية قائد قافلة بلاد الروم: يختلف لون سداتها عن لون لحمتها، واللونان هما لون القرمز ولون الجمست ذلك الحجر الكريم، ومن هنا جاء تبدّل إشراقته.

وتأملته بإعجاب:

ـــ لقد تم صنعها بمهارة فائقة، إنها من صنع محترف قدير، وأضفت وأنا أبتسم، ألست ترى أن ما من أحد بإمكانه منافسة بيزنطة.

ـــ ما من أحد يمكنه أن ينافس بيزنطة لأن سحرها البعيد يوقظ في نفسي غريزة المحارب التي لن أستطيع قمعها. ياسمين، سأرحل هذه المرّة، على الرغم من أن حلمي الذي لم يتحقق هو أن أطأ الأرض المقدسة للمدينة التي أحاطها الله برعايته.

— لقد أوصاك المتنبي في إحدى أجمل قصائده أن تعيد سيفك إلى قرابه . كما أنذرك قيس من خلال بادرة ورعة يائسة بأن النجوم تخمد أمام فلكك . فلتبق بجانبي ، نتبادل كؤوس الحب ، وسترى ميلاد طفلنا ، وسنبقى في غاية السعادة .

— ألست تدرين ، يا ياسمين ، أن الأمور قد تبدّلت من حال إلى حال ؟ فقد مات قسطنطين بورفيروغنيتس لدى عودته من زيارته إلى الأولمب . أما رومانس الثاني ، الإمبرطور الجديد ، فهو غريب عن شؤون الحكم ، وغارق في ملذّاته . وبرداس فوكاس ، اعتزل في صومعة ، بعد أن شعر بالعار ، ولم يكن ليدخل معركة معي لأن بخله الأسطوري أغضب رجاله الطمّاعين . والآن حل ولداه محله : نقفور الذي كان مختبئاً في سرداب ليتحاشى نقمتي ، يعدّ الآن العدّة لحملة إلى جزيرة كريت ؛ وليون يحاول تدمير مواقعي الحدودية لينفذ إلى ديار بكر ، ثم يرتمي بعد ذلك في أحضان سورية . لقد أحرز غلامي نجا بعض الانتصارات . ولكن ما من أحد غيري بإمكانه أن يلقي الرعب في شتى أنحاء المقاطعات الآسيوية للإمبراطورية ويحرز النصر المؤزر لتكون كلمة الله هي العليا .

« سأرحل دون أن أصغي إلى النجوم ، لأنها لا تتحدث قط ؛ ليست سوى مقاطع ضوئية تبعثر أشعتها على كوكبات فرساننا الليلية » .

« كفي عن البكاء ، وإلا تورّم جفناك الورديان من الدمع ، وتثاقلت أهدابك . كفاك بكاءً فليس بمقدور أيّ من البشر أن يبدّل مشيئة الله » .

كانت شفتاه ملتهبتين . وكانت ملاطفاته لي تغمر حواسّي ولكنها تثير قلبي ؛ لم يكن حبي ليحتجزه طويلاً ، ولكنه كان يعيده إلي دائماً . لم يكن سيف الدولة يأبه للمعارضة ولا للنصح . ومن هنا كانت تبدأ عقدة عزلته الكأداء .

عندما فارقني ، قضيت الليل أتأمل درب النجوم دون أن أفهم أو أدرك شيئاً ، وبذلت ما في وسعي للإيمان بأنها خلال مدارها الخاطف ، يستمر ألقها في إشعاعه ليلقي الضوء على أقدارنا ، دون أن يبدّل منها شيئاً .

كانوا ثلاثين ألف رجل على أهبة الانطلاق ، كانت خوذهم وبذلاتهم تسطع تحت أشعة الشمس ، وكانت أحزمتهم ولجم خيلهم ، وأغمدة السيوف مرصّعة بالفضّة ؛ وكانت أفواج الجنود الأشدّاء ، الأشاوس ، المسلحين بالرماح والسهام والأقواس ، والخيالة على أبهى المطايا على وشك مساندة صراع شرس ضد العدوّ الرومي الذي يلجأ إلى الأساليب نفسها التي يلجؤون إليها ، والمناورات نفسها ، والدروع نفسها ، لأن الجيشين يتقاسمان الإرث الفريد الذي لا مثيل له لروما الغابرة . فكلاهما يتقن الخدعة ، والمفاجأة ، والمكيدة ، بيد أن بيزنطة

كانت هي الخاسرة حتى ذلك الحين ، لأن سيف الدولة القائد كان يتقن الخطب التي تثير الحماس في نفوس الجيوش ، وحتى في الانتصارات الأقل شأناً . كانت تهطل أمطار من الأحجار الكريمة على جنوده المثقلين دائماً بالغنائم الثمينة .

انطلقوا جميعاً ، واختفى الأمير بردائه الأبيض الناصع ، على متن جهاد العملاق ذي الرحل الذهبي ، بعيداً بين مثارات الغبار .

انخفضت أصوات هتاف الجماهير ، وتلاشى كل شيء في الأفق الوردي مع رياح الصيف الفاترة ، وذهبت الطبول والجلاجل بجلبتها كما تتلاشى الأحلام .

ما أكثر الرسل المنهكين الذين لوّحتهم الشمس وهم يشقّون عباب الصحراء الملتهبة ، مخترقين عواصف الرمال بمسيرتهم الهائمة ، وما أكثر السعاة الذين حطموا كثبان الرمال تحت سنابك خيلهم التي كانت تعدو بلا هوادة ! والجميع جاؤوا ليودعوا تحت ظلال قباب الحلبة المنخفضة رواياتهم المذهلة عن آلاف الانتصارات التي تم إحرازها والاختراقات الهائلة في عقر دار الروم .

كان سيف الدولة قد انضمّ إلى غلامه نجا . وكان الجيش اللجب ، وكأنه السيل العرم يتسلّق المنحدرات الوعرة ، ويحاذي الوهاد حيث ينتظر الموت ذوي الخطا البطيئة . كان الجيش يعدو عبر الشعاب الضيّقة ، والسهول المتموّجة ، والهضاب المرتفعة ، آناء الليل وأطراف النهار ، والعدو يتوارى باستمرار كأنه ظل شارد تبتلعه الأرض . كان جنود القائد ليون فوكاس منهكين بأسرهم ، تم القضاء عليهم من خلال الغارات المتلاحقة والحملات المتتابعة التي جرت قبل ذلك الحين . وكان القائد الأعلى لقوات الروم في آسيا مدركاً عدم مقدرته على تحمل الاشتباك مع عدو ازداد عدده ، وارتفعت معنوياته بسبب الانتصارات الحديثة المتلاحقة . وعلى الرغم من كل الجماعات المقاتلة التي انضمت إليه من الأماكن المجاورة ، كان جيش الروم مستمراً في التواري على أطراف المعركة كما تتلاشى الموجة على الرمال .

زادت الكتائب المساندة من حجم جيش سيف الدولة ، وانطلقت كأنها الغضب الجامح تزرع الهلع والرعب ، باتّجاه الشمال ، تدمّر كل ما يقف في وجهها ، وتم أسر العديد من الرجال .

وكان سكان القرى يشاهدون ، وقد تسمّروا من الخوف ، مواكب الخيّالة الهائلة على الجياد والإبل ، وآلات الحرب العملاقة ، وأحمال الذخيرة . وكان صوت النفير الذي يتردد عالياً في أصدائه من تل إلى تل آخر ، يدق ناقوس الخطر في كل الأعمال المجاورة .

وفكّرت في قيس، ذلك الأعمى الذي اختار أن يكف بصره، حين أقبل الرسل الذين حال لونهم من الغبار، وجفّت شفاههم من العدْو السريع المتواصل وجثموا على الأرض ليرووا أحدث الانتصارات. كان قيس هو المرارة الوحيدة التي أحسست بها، إذ أصبحت على اعتقاد راسخ أن النجوم ذات الألق الذهبي، والبريق الصافي من خلال أشعتها الخفية الهزيلة، لم تكن صادقة مع الرجل الذي كان يهيم برصدها.

كان الجيش يدفع في مقدمته بالعديد من الأسرى، بينهم الكثير من الأشراف الذين يحملون صناديق ملأى بالذهب والفضة والأحجار الكريمة والمنحوتات وبالات الحرير والبروكار، والآنية الذهبية، والأباريق، والخزفيات. لم تكن هناك نهاية لقطعان الماشية. وكانت المركبات الرومانية طافحة بالغنائم التي أضيفت إليها تلك التي تم الاستيلاء عليها من المدن العديدة المنتشرة هنا وهناك على امتداد طريق الجيوش، وكان المحاربون الفخورون الأشاوس يعدون غير مبالين عبر حقول الروم. كانوا على مسيرة خمسة أيام من بيزنطة الرائعة، بيزنطة المثيرة، التي تتأمل جمالها على صفحة مياه القرن الذهبي، بقبابها السحرية، وقصورها الحافلة بالبذخ، وكنائسها ذات الكنوز الفريدة؛ وبعد سراب كثبان الرمال الذهبية الذي ألفوه في مسيرتهم، جاءت الحقيقة المتمثلة في بيزنطة أمامهم وفي متناول أيديهم وبعد قليل من الجهد الأخير، كان من الممكن أن يصلوا إلى الأرض المباركة التي تفترشها درّة أعظم إمبراطوريات العالم.

كانت خيمة سيف الدولة تفيض بسجفها الأرجوانية تحت الراية المزركشة التي تخفق مع الريح. والشعراء ينشدون قصائد الظفر والمجد، والجاريات الحسناوات يرقصن، وصدورهن تفيض بالحلي، حول نيران الفرح، والرجال يرددون في جوقة أناشيد النصر، فالعيد في كل مكان، والصخب المجنون في كل زاوية، وكنت أحسّ أن كل هبّة ريح تحمل معها خاطرة من خواطر سيف الدولة تحلّق حتى تصل إليّ.

ولكن، واأسفاه، ما من شيء يجلب إليّ الاطمئنان والنوم الهنيء. كان نبأ الانتصار يزيل عن نفسي الهم والقلق في الليل قبل أن يأتي الفجر حاملاً في طيّاته دوّامة جهنمية من الآلام والمخاوف. كان الرؤية الغامضة لسيف الدولة، مكللاً بالغار وهو يدخل مدرّج بيزنطة على متن مركبة النصر تهز كياني. وهكذا انتهت المغامرة الجريئة، وانبعث الحلم الذي طالما تحطّم، ولم أكن أدري أين تبدأ صلاتي وأين تتوقف وساوسي كنت راضية بمعيشتي التي لم تكن بمشيئتي؛ ثم يتردد خيال سيف الدولة على الفراغ في سريري، صامتاً، فيتغير كل شيء من حال إلى حال، استعداداً لعودته.

اخترق صوت سنابك الخيل على حين غرّة هدوء الليل ، وأوقف الفارس بعنف فرسه الجموح :
ـــ إن أميرنا المتألّق سيف الدولة الحمداني عائد في طريقه إلى حلب الشهباء ، محمّلاً بالغنائم الهائلة ، ودافعاً أمامه الآلاف من أسرى الروم . حينما غادرت مواقع الجيش لأحمل بشرى النصر هذه ، كان الأمير يسير في الركب مزهواً مفعماً بالسرور ، على متن جهاد ذي القامة العملاقة والقوة الخارقة ، وكان ، بلا انقطاع ، ومن مقدمة الرتل الهائل حتى المؤخرة ، يلعب برمحه بمهارة وبديره بحذق ، ملقياً إياه في الجو ويتلقاه وهو طائر ، دون أن يخفف من حدّة السرعة الجنونية لمطيّته .

« استعدي يا حلب ، لتنشدي عودة أعظم الأمراء شهامة ، وأشدّ المحاربين إقداماً ، أعدّي سلال أوراق الورد ، وافرشي السجّاد الحريري الذهبي ، وهلّلي لدى استقبال النصر ، فسيف الدولة دائماً عائد إليك .

انبثق الفجر وجلاً ، وبدأ المؤذّنون أذانهم المبتهل إلى الله من أعلى مآذنهم الفضيّة . وفي دعاء ورع من أجل التوبة وطلب الغفران ، أقبل المؤمنون على الصوم ، والانقطاع عن الطعام والشراب منذ مطلع الفجر حتى مغيب الشمس ؛ فقد بدأ شهر رمضان ، وأخذ آلاف المؤمنين يتوجهون نحو القبلة ، خمس مرات يومياً ، ساجدين وكلهم استسلام ورجاء لينصر الله أميرهم ويعيده بالسلامة .

دائماً ما تكون لحظات الانتظار الأخيرة هي الأطول لأنها أكثرها اقتراباً من الانتهاء . ويلعب الزمن لعبته ، فتتحول الساعات إلى أيام ، ويتمطّى كل يوم كما لو أنه يودّ الامتناع عن أن ينقضي . وتابعت خط سير العودة ، وأنا على ثقة واطمئنان : سيعود سيف الدولة لأن الله قد قسّم العالم من خلال حكمته عزّ وجلّ ، ولم تكن بيزنطة من نصيبه ؛ ولدى تصوّري مدى ثقل الغنائم ، أدركت أن سيف الدولة يجب أن يكون في ملاطية ، ثم سيجتاز جبال طوروس الشرقية ليخترق سهول سورية الخصبة ، وباديتها الصهباء وأخيراً يصل إلى الحلبة ذات الخزف الذهبي .

كانت الراية الموشّاة تصارع رياح الليل العاصفة . واجتاز شبح هارب مسرع المعسكر الذي كان ينام نوماً مضطرباً . لم يكن هذا الشبح ، الذي لا لون له ولم يميّزه أو أيعرفه أحد يدري أين يسير ولكن صوته ارتفع قائلاً :
ـــ في الشعاب الضيّقة لجبال طوروس الشرقية ، حيث يصعب اجتياز المنحدرات الوعرة في هذا المكان الذي يطلق عليه الروم اسم كليندروس ، وهو مغارة الكحل ، حيث يصبح

أعزّ الموتى نسياً منسياً في هول الصخر الشرس، في هذه المقبرة الغدّارة، يختبىء ليون فوكاس مع جيوشه. إنه يكمن مع كل قواته شاغلاً القلعة الرومية التي تتربص بالعابرين.

وتوقف الشبح عن الكلام، وقُضي عليه لأن سيف الدولة يكره الخيانة ويضعها في مصاف الطمع والجشع.

مع ذلك، استمر الأمير المظفّر بالاتكال على حدسه الخاص وتجربته الغنية، دعا قواده وقال لهم:

ــ سنذهب إلى مغارة الكحل لأن فوكاس ينتظرنا هناك. سنذهب إلى مغارة الكحل لمجابهته وجهاً لوجه حيث أراد الاختبار. سنذهب إلى مغارة الكحل، لأننا نكره الخدعة ولا نخشى المنيّة.

حاول القادة نصحه، والتوسل إليه، بيد أن من عادة سيف الدولة أن يحقّر من شأن الآراء الأخرى غير الصادرة عنه، وهكذا تورّط الجيش الفخور بانتصاراته المؤزرة واتجه نحو شعاب مغارة الكحل المجهولة الغدّارة.



# 16

كان العبد المصري محمود على متن جمله الصديق الرفيق ، ينشد أنغام طفولته ، أنغام الأيام الغابرة . وغالباً ما كان يحلم بعودته إلى أهله الذين مازالوا بعيدين عنه ، وبينما كان يغني بملء حنجرته ، مباهج الحياة . كان أول من شاهد مغارة الكحل وسقط فيها صريعاً .

كان ذلك في ١٥ رمضان ٣٤٩ هجرية ، الموافق للثامن من تشرين الثاني سنة ٩٦٠ للميلاد .

كانت الطبيعة الموحشة وكأنها رسم ساخر لم يكتمل تؤكّد على تضاريسها البالغة الضيق . وانحصرت القافلة الطويلة في الوادي الصغير الضيّق ، وكانت تضم السجناء المصريين والأتراك والزنوج والبربر . وكانوا يرصدون قطعة السماء المحصورة بين المنحدرات الوعرة دون أن يروا أي فرد من أفراد العدو ، وخيّم صمت ثقيل مريب على الممر الجبلي .

وما أن بدأت مقدمات الأرتال باجتياز المخرج الجنوبي حتى قُرعت طبول جيش الروم ، وعلت أصوات أبواقه ، ومع هذه الجلبة المعتوهة التي ترددت أصداؤها في الوادي ، ارتفعت صيحات فرح جيش الروم ، وقد رأى عدوّه يقع في الشرك مما جعل الذين أصابتهم الهزيمة النكراء بالأمس يصبحون أبشع المنتصرين .

كانت المذبحة هائلة ، تهاوت الصخور الضخمة وجذوع الأشجار على رؤوس جيش سيف الدولة ، ثم هطلت صاعقة من اللهب تصم الآذان وتحولت إلى مطر من النفط ، ومزيج من النيران الرومية ، والقار الملتهب والرصاص . وكانت تصدر عن الأجسام التي تلتهب وتتكبد الآلام المبرحة ، صيحات العذاب وتأوهات الموت . في هذه المجزرة الشائنة ، حيث لم يستطع المعذّبون رفع رؤوسهم ليتضرعوا إلى الله الغفور الرحيم ، كان الدم ينبجس من العيون والحناجر والقلوب ، والقتلى يتراكمون ، تسحقهم الجمال والبغال والخيل والعربات .

أقدم بعضهم على بادرة أخيرة للرد بلا جدوى قبل هذا الموت الشرس، فقتلوا بعض الأسرى من ذوي الشأن، ونسي آخرون ما هي حقيقة الحرب، فأخفوا رؤوسهم بأيديهم آملين الرجوع إلى النقاء الذي فقدوه.

كانت الهزيمة مفاجئة؛ والخسائر فادحة؛ تم تحرير أسرى الروم، واستعيدت الغنائم. وكان الجيش المظفّر يرقد في نهر من النار والدم، مقطع الأوصال؛ تم ذبح العديد من كبار رجال سيف الدولة، بينما وضعت القيود في أيدي الكثير من الآخرين الذين ساروا في طريق العبودية والمنفى.

حين فاه الرسول الهارب بكلماته الأخيرة، اعتقدت أنه سيسقط ميتاً من هول ما رأى وعاش. بيد أن الرجل نهض مرة أخرى. إذ كان يريد أن يسجد ليسبح الله العظيم ويشكره، وقال بصوت مرتعش وقد أجهش بالبكاء:
ـــ أعتقد أني الناجي الوحيد من جحيم مغارة الكحل الملتهب.

تتراوح الدنيا ولكنها تبقى دائماً متوازنة، ولا يبقى للبشر سوى الألم والبكاء. شعرت بأحشائي تتلوى من الألم، وبالانقباض في حلقي، والدوار في رأسي وانفجرت بالبكاء. ومن خلال هذا الألم الذي استبد بي، شعرت بغمامة سوداء من اليأس والحزن تحيط بي.

هبطت الظلمات، كثيبة معتمة، وللمرة الأولى، أخذت أتساءل عمّا إذا كان الفجر الوردي سيشرق من جديد.

أرسل الله المطر، وكانت تحطم سكون الليل التأوهات الكئيبة، وخنق صوت الطوفان، في حلب، الوشوشات الليلية العذبة والخفيّة التي تضفي على الليل أنينه المتراخي وهدوءه العميق.

لم تكن تنقص تلك الليلة الكئيبة سوى ولادة جديدة، فقد وضعت طفلة وردية اللون، نظرت إليها بعذوبة، وأنا ماضية في ذكرياتي.



# 17

كان هناك انتظار يصعب تحديده يخيّم على الرؤية الغامضة للمستقبل . إنه الانتظار الوحيد ذاته الذي يتلاشى لدى بعضهم بصلاة ورعة وآمال مخلصة ، ويحوك لدى بعضهم الآخر المؤامرات الدنيئة ، والجشع الذي لا يعرف حدوداً .

كان خيالي المفعم ، عادة ، بالأحلام الهنيئة ، يتيه في مشاهد مرهقة حيث كان سيف الدولة يتخبط فيها مع ملاك الموت الأسود . وعدت إلى رؤية لقائنا في ليل الصحراء ، في تلك اللحظة التي أحببته بها ، في ذلك اليوم الذي أسرني فيه ، وبكيت في صمت يائس على تلك المودّة المفقودة . كان يُخيل إليّ في بعض الأحيان قدوم شخص ما ، بيد أن فراغ الواقع كان يقضي على الحلم ، ويستمر الانتظار بطيئاً ، في غاية البطء . بيد أن طفلتنا وحدها لم تكن تعرف الانتظار .

ارتفعت جلبة الخيل التي تعدو وهي تتقدم بلا هوادة تشقّ عباب الضباب الأبيض ، وتسابق الرياح . كانت جلبة ذلك الخبب المألوف الذي يعرف طريقه ، وكان الضباب يزداد كثافة ، يحجب كل الرؤية ، مما يحمل على الاعتقاد أنه يتوارى باستمرار في بياضه المائل إلى الرمادي .

كانوا مائة من العائدين ، مجرّدين حتى من الأوهام والآمال . تتسم جبهتهم بالعار الذي لا يمّحي ، وكواهلهم مثقلة بالألم ، وعيونهم زائغة من هول ما رأوا . دَخلوا الحلبة في ذات الهرج والمرج الذي يخلط بين الهزيمة والنصر . وكان سيف الدولة بينهم .

ـــ ياسمين ، مات جهاد ، وأنا مدين له بحياتي ، ورقدت معه الصداقة الوفية في وادي مغارة الكحل .

« لا أودّ أن أروي لك فظاعات الحرب ، لأنك مصنوعة من الجمال ورخاصة العود . ومن أجلك فقط عدت . حين رأيت رجالي المحاربين البواسل يقعون في الشرك الذي نصبته لهم

مكيدة ليون فوكاس، اجتاحني الأسى، وما كان أسهل الموت على نفسي. لقد بلغت المجزرة حدّاً سيجعل من الأجيال في القرون المقبلة يرون رفات قومي التي لم تدفن. كان يأسي عاجزاً، ويا للأسف، مترعاً بالندامة، فكل أصدقائي يدفعون ثمن عنادي الأحمق، ماتوا في سبيلي، في سبيل كبريائي الذي لا يُحتمل، ولم يكن لدي ما أمنحهم إياه، ساعة احتضارهم القاسي، سوى الأنين المر، والندامة التي لا حصر لها. كنت أودّ أن ألتحق معهم بالدار الآخرة، ولكني سمعت صوت فوكاس يصيح بأنه يريد أن يحصل عليّ وأنا على قيد الحياة، فرأيتك تبكين بانتظاري، رأيتك حسناء في غاية الحسن، وفجأة دافعت عن نفسي بعنف، وأخذ فرسان الروم يقتربون مني أكثر فأكثر، حتى كادوا يلامسونني وقد حال لون وجوههم من الفرح، وشعرت بالكراهية نحوهم، وما كادوا يصلون إليّ، حتى قفز جهاد فجأة عبر الصخور نحو فرج بعيدة؛ كانت مفتوحة على وهد ضيق عميق، وبقفزة خارقة، طار في الفراغ، في العدم من أجل بلوغ الحياة والحرية. ومن شدة عزم هذه القفزة، ارتميت على الأرض وفقدت صوابي وغبت في ضباب من الدوار. وحين فتحت عينيّ، كنت بعيداً عن غبار المعركة وكسبت الرهان ضد الموت، ولكن جهاداً، جوادي الرائع، كان راقداً على الأرض، والدم الأسود يقطر من فمه المنفرج. كانت نظرته شاخصة وقد اجتاحتها تلك العذوبة الحيوانية الخالية من التملق. لقد مات كي أحيا أنا، وانحنيت ببطء لأداعب جسده الذي ما فتيء حاراً، ولم تكن عيناي المغرورقتان بالدمع تريان شيئاً.

«ياسمين، إن المرء يعاقب نفسه من خلال تبكيت الضمير الذي يعانيه. رأيت أمامي المجزرة التي تتم بلا رحمة ولا عدالة، وأيقنت أن الله أعظم من كل شيء».

«قضيت ليلتي الأولى في مكان يدعى الغوانيت، وأعطاني طفل أشقر كسرة خبز، ووهبني رجل مسيحي يدعى يوانيس دابة، دون أن يعرف من أنا، وبدأت رحلتي وحيداً أسير وفق مشيئة الرياح، والبرد، والمطر، وحبّات البَرَد، إلى أن بزغ فجر أكثر رأفة ورأيت عن بعد بعض الفرسان التائهين؛ وكانوا من رجالي، فأرشدتهم إلى طريق العودة».

— سأبذل ما في وسعي لأمحو كل هذه الذكريات الأليمة، وسأجمع في مخيلتي كل تلك الظلال التي تؤرقك، سيبعد حبّنا عن الوجه السيء للقدر وستتيه إعجاباً بطفلتنا وابتساماتها، وستبعد براءتها المرحة وساوس الشقاء.

وفي غمرة نشوة لقائنا، وهيام كلينا بالآخر وقد فاضت بنا الغبطة، أذابت أفراح الحب، في غياهب النسيان مشاعر الآلام المبرحة التي فجرتها مغارة الكحل.

وفي هذا المعنى جاء في إحدى روائع قصائد المتنبي :

**لاتلقَ دهرَك إلا غيرَ مكترثٍ ... مادام يصحبُ فيه روحَك البدنُ**
**فما يدوم سرورُ ماسُررتَ به ... ولا يَردُّ عليكَ الفائتَ الحَزَنُ**
**مِما أضرَّ بأهلِ العشقِ أنهمُ ... هووا وماعرفوا الدنيا وما فَطِنوا**
**تفنى عيونُهم دمعاً وأنفسُهم ... في إثر كل قبيح وجهُهُ حَسَنُ**
**ما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يُدركه ... تجري الرياح بما لاتشتهي السُّفُنُ**

ـ لقد أمرت بإقامة الاحتفالات بمناسبة ميلاد طفلتنا، فالشعب لا يحب مطلقاً الهزيمة والبؤس، ويجب وضعه دائماً في شعور وهمي بالنصر. ستُنحر الأُضحيات من الخرفان في كل الأحياء، وستوزع النقود الذهبية في الأسواق الغاصة بالبشر، والجميع سينشدون، لأن الأحلام بالثأر تتجسد في نفس كل فرد. إنّ نجا منهمك في تجنيد جيش جديد، وسيعمل كل محارب على أن يغسل بالدم العار الذي لحق بقومه.

ـ نعم، يا عليّ، فأنا على علم أنك ستعود دائماً إلى الانطلاق، فالربيع بدفئه الحائر يدعوك لتقوم بالجديد من الحملات، وسيكون الشتاء قد عصف برياحه العاتية وقضى على أشباح الموت وسحب الهزيمة السوداء.

وقاطعني :

ـ إن جميع الأسرى : فرساني وحرسي وعلمائي وقضاتي وقادتي يتوّجون نصر فوكاس الماكر في مدرج بيزنطة. إنهم يبيعون رجالي من المحاربين الأشداء في سوق النخاسة. أما أبو فراس، شاعري وصديقي وأخي فهو أسير في سجن مظلم رطب. كنت أحسبه ميتاً، ولكن الله حفظه ليصون جزءاً من تلك الكتلة من المشاعر وتلك العذوبة في الألفاظ وذلك النقاء غير المحدود، الذي يضفي على أمور الحياة، على الرغم من العنف والموت، التعبير عن روحانيتها. سأعلن عن فدية باهظة كي يعود إليّ، ويعود شعره ليمتعنا كما كانت عليه الحال من قبل، وكم أحببت إنشاده :

**إذا مررتَ بوادٍ جاش غاربُه ... فاعقِل قلوصَك وانزل ؛ ذاك وادينا**
**وإن عبرت بنادٍ لاتُطيف به ... أهلُ السفاهة، فاجلس ذاك نادينا**
**ويصبح الضيفُ أولانا بمنزلنا ... نرضى بذاك ويمضي حكمه فينا**

وقوله :

**ونحن أناس لاتوسّط بيننا ... لنا الصدرُ، دون العالمين، أو القبرُ**

توقّف سيف الدولة عن الكلام، ولكني لم أقل شيئاً، وكنت أعلم أنه يودّ أيضاً أن يردّد عليّ ما باح به إلي مرات عديدة.

ــ يمكننا أن نعتاد على الخسارة بكبرياء أو استسلام، ولكننا دائماً ما نتلقى الخسارة بمرارة شديدة، وددت كثيراً أن تبقى حلب، حتى بعد رحيلي، موئلاً لازدهار الشعر والفكر. لقد أردت أن أكون راعي جمهرة كاملة من الأدباء والشعراء والفلاسفة، ومجدي مرتبط برباط متين مع عبقريتهم. وربما أصبحت من أجلهم المدافع عن الإسلام، والأمير المثقف، لأنهم استطاعوا أن ينمّوا في نفسي ذلك الشعور بأنني حاكم عظيم.

كانت سهرات الشتاء الرمادية تنقضي مع ألوان طويلة من النجوى، يستمر خلالها سيف الدولة برواية وقائع الساعات المؤلمة التي عاشها. كان يحب التحدث إلي، لأنني كنت أعلم كيف أصمت وأصغي إليه. كان رائعاً، وكنت أحبه، بيد أن نظرته المتعالية تحولت لتعكس مسحة من الكآبة.



# 18

كانت الليلة صافية، متألّقة بالنجوم، ومع ذلك كان البرد القارس يصفع خدود المارّة فيجعلها وردية. وفي الساحات الداخلية كانت مياه السلسبيل ساكنة، صامتة. غفوت تحت أغطيتي الثقيلة المصنوعة من الفرو، وكنت أسمع حسيس النار وتوقّدها. وذهب بي الرقاد إلى عالمه الممتلئ بالأحلام، بعيداً عن الحياة. كان الحلم الذي رأيته زاخراً بالعديد من الألوان العطِرة التي كانت تتلاشى في فقاعات؛ كنت مذهولة بذلك حين فوجئت بتنفّسي يتوقف كما لو أن كرة ثقيلة جثمت على صدري. وفتحت عينيّ، وكانت النار التي بدأت تخمد ما تزال تنير الحجرة ببعض الانعكاسات الشاحبة. أواه! استمر الضيق إلى حد الاختناق. وكان الصفير يخرج من رئتي كالأوتار المهتزة، وكنت أبصق دماً. استيقظت الجارية النائمة قرب سريري فطلبت إليها العودة إلى النوم لأن ذلك لم يكن سوى كابوس.

جلست على فراشي، أنتظر الدقائق وهي تتتالى؛ حياتي أُصيبت وكنت أدرك ما هو المرض العضال، وأنا عاجزة عن البكاء. وسرعان ما سينتصر مَلَك الموت على عجزي؛ كان الألم الحادّ الذي يخنق صدري يشدّ على حلقي. وحين بزغ الفجر وأضفى اللون الليلكي على دياجير الليل، رأيت النار خامدة، فقررت أن أعيش حتى غاية آمالي، وحتى غاية إرادتي. وستكمن قوتي في صمتي لأتمكن على نحو أحسن من الصراع، فسيف الدولة جريح، وعليّ أن أغمره حبّاً.

منذ ذلك الحين تعلمت مراقبة العالم الذي يحيط بي، بفضول جديد، ولكنه منعزل، لأن كل شيء كان على وشك الانتهاء بالنسبة لي. لم يكن هذا الحريم يخص أحداً، إذ لم تختر أية امرأة من هؤلاء النساء حياتها؛ كان جمالهن يذوي من السأم وتصوراتهن تختنق، ومع ذلك، حين تتقدم بهن السن، لا يجدن أمامهن، حرصاً على إغناء أيامهن المديدة، سوى سرد وقائع الذكريات المزخرفة لحياتهن الحاضرة التافهة الفارغة.

أيقظني سيف الدولة من أحلامي، وبدا مطمئناً مرحاً، وجلس في ذلك المكان الذي اختاره عن غير قصد وأخذ يقصّ علي:

ـ في حلب، تاجر ألبسة يدعى أبو عباس الموصلي. كان هذا الرجل سجيناً منذ أربعين يوماً لأنه رفض أداء الضريبة. ومن عادة الشاعر أبي الفرج الببغاء أن يتسلى بزيارة السجون بحثاً عن بعض المُلح والأخبار. وجاءني هذا الصباح يروي لي أن هذا الرجل يفسّر الأحلام وهو يطلب المثول بين يدي، فاستبد بي الفضول، وجاء أبو عباس، وانحنى حتى كاد يلامس رأسه الأرض وقال:

ـ «ألا تعلم أنه سيطلق سراحي في هذا اليوم؟»

ـ «فسألته مستغرباً:

من أين جئت بهذا؟

ـ «من الحلم الذي رأيته، أهداني أحدهم مشطاً وهو يقول لي: مشّط لحيتك، ففسرت هذا، معتقداً أنهم سيفكون قيودي، ولما كان الحلم قد وقع في آخر الليل فإن تحقيقه يجب أن يكون قريباً جداً».

«شعرت بالرغبة في الضحك، وكان الرجل ظريفاً شجاعاً، فأعفيته من عقوبته. وخرج داعياً إلى الله أن يحفظني».

ـ لعلّه كان أسعد بمثوله بين يديك من سعادته بالحصول على حريّته.

ـ لعلّي، أطلقت سراحه لأني فكرت بأبي فراس، وفرحتي في حال عودته، فلا بدّ من أن يكون لهذا الرجل من يحبه وينتظره.

ـ سيعود أبو فراس. وهم في بيزنطة يعاملونه باحترام. ألم يكن هو الوحيد الذي لم يرتدِ ثوب الأسرى ليزهو بالعباءة التي كان يرتديها في مغارة الكحل، الممتلئة بالبقع الحمراء من دماء الروم، والتي يحتفظ بها على جسده بكل عناية؟ ولا بد أن جماله وروحه قد سلبا عقول أكثر السجانين غلظة.

ـ سيكتب في بيزنطة أجمل قصائده، فما أشد شعوره بالألم حينما جُرح. وقد أرسل إلى أمه، وهو ابنها الوحيد، أشعاراً تفيض بالحنان، وكتب إليّ:

**دعوتكَ للجفن القريح المسهّد ... لديّ وللنوم القليل المشرّد**
**وما ذاك بخلاً بالحياة، وإنها ... لَأوّلُ مبذولٍ لِأوّلِ مُجتدِ**

وكتب أيضاً:

**سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم ... وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ**

صمت سيف الدولة ، وقد بدا عليه التأثر . وكان قد مر ردح من الزمن وهو يعشقني ، ولكنه لم يبح لي بذلك قط . كانت العاطفة المؤثرة قد ذابت في طمأنينة كلينا إلى الآخر ، في هدوء صامت يتضمن كل شيء ويستغرق كل شيء ، ولا تحوم حوله الشكوك .

الحمّام مملكة المرأة ، وميدان حرّيتها حيث تحيا بلا قيود من أجل جمالها . ورفاهيتها ، ومن أجلها هي . في حمّام الحريم لا تعرض أية امرأة أشكال الضعف المهين أو المظهر المشعر بالأنوثة . كنّ جميعهن حسناوات وعاريات .

وفي الصالة الخاصة بالتعرّق ، جاءتني إحدى الخادمات تفركني بقفاز من الصوف الدقيق الصلب ، ودلّكت جسدي ثم طلت رأسي برواسب طين النيل ، التي سارعت إلى شطفها لتخضب شعري بعناية ، خصلة خصلة ، بالحنّاء التي تركتها تتماسك بهدوء .

وفي الساعة المخصصة للراحة ، قدموا لي عصير اللوز وبعض الكعك الصغير الممزوج بالتوابل . لاحظت الثرثرات التي تتخللها الضحكات ، والهمس الماكر المقنع خلف الابتسامة المخاتلة ، دون أن أعير ذلك الكثير من الاهتمام . وشعرت أن الداء يسري في أنحاء صدري ، وهو لا يزال حائراً . كنت أودّ مغادرة الحمام ولكن الشعائر المقدّسة لا يمكن تغييرها ، فلم أستطع اختراقها .

ثم قامت عائشة بنتف حاجبيّ بواسطة خيط حرير مزدوج وبرشاقة متميزة . ووضعت لي لمياء المساحيق ؛ بيّضت أسناني بواسطة مسحوق فحم نباتي وأعطتني قشر جذر شجر الجوز لأمضغه ليضفي على لثّتي اللون القرمزي والنضارة المتألّقة . وحين صبغت بشرتي بمزيج مسحوق الأرز مع بياض البيض ، اشتدّ ألمي وصدر عن رئتي صفير لم أستطع أن أتمالكه . وكانت لمياء تصبغ وجنتيّ الملونتين من الألم باللون الأحمر ؛ أصبحت العطور لا تحتمل ، والحرارة خانقة ، ورئتاي اللتان علا صفيرهما تطلبان الهواء ، والمزيد من الهواء . ولكن لم يكن حولي سوى نساء عاريات مذهولات ، لا مباليات أو راضيات ، يراقبن الألم دون أن يدركن شيئاً عنه .

غطّوني بمناشف من نسيج الكتّان ، وحملوني إلى خارج الحمّام ، وجاء إلى سريري أطباء سيف الدولة الأربعة والعشرون ، الذين قدّموا معرفتهم وخبرتهم ولاسيما رغبتهم في إدخال السرور إلى نفس أميرهم .

كان هو هنا ، وخلال كل سويعات حياتنا ، ظلت صورته أمامي لا مثيل لها في حقيقتها ؛ كانت فريدة ، لم أكمّ أعهدها ، كانت تعبيراً عن قنوط أخرس .

قلب الربيع وجه العالم بروائحه الزكية الخفية ، ليعمل على تفتيح البراعم ضمن منظور شفاف ، شددت حرارته من عزيمة سيف الدولة ولكنها لم تشجّعه على الرحيل ؛ كان على مقربة مني ، قلقاً ، ولعله لم ينس بعد تلك الآلام المبرحة الناجمة عن الهزيمة الظالمة .

بقي سيف الدولة في الحلبة وشارك في المناظرات الأدبية التي كان يقود جلساتها ، وغالباً ما كان يستعيدها ، وأحياناً يصححها ، ويغدق دائماً العطاءات المتمثلة بقطع نقدية كبيرة صُكّت خصيصاً بوزن يعادل عشرة دنانير اعتيادية ، وقد شهد له النحوي المعروف ابن خالويه بحسٍّ شاعري ومعرفة تامة بخفايا اللغة العربية . وكان سيف الدولة ينظم أشعاراً بأوزان شعرية غريبة وبحساسية العاشق الولهان . كانت تتردد أصداء المباريات الشعرية تحت القباب المرهفة الآذان ، ويحتفل المعنيون بالآداب بأعمال أبناء اسماعيل ، وأميرهم المحبوب .



# 19

كان العديد من الناس يهرعون من كل حدب وصوب إلى الجامع الكبير الذي ينافس بزخارفه الباذخة، ومرمره المتعدد الألوان، وفسيفسائه التي لا تحصى، أجمل مساجد كل الخلفاء، جامع بني أمية في دمشق. وفي مواقيت الصلاة، كان يضم كل الأتقياء المسلمين الذين يسجدون مبتهلين إلى الله. وفي يوم الجمعة كانوا يصغون إلى صوت ابن نباتة الآمر الآمر. كان هذا الفقيه هو الأكثر تمسّكاً بشريعة الله، والأفصح في مقدرته على الإقناع، والأنفذ في معرفته للقرآن والحديث. وبعينيه الخضراوين الثاقبتين، وحركته العصبية المتماسكة، وبقامته المرتفعة الممتدة بضمور صلب، ومن أعلى المنبر الخشبي المرصّع بالصدف والعاج والأحجار الكريمة، بدأ ابن نباتة خطبة الجمعة بصوت كهزيم الرعد يهتز بالثقة:

ـ الحمد لله، ذي العرش العظيم والخير العميم، والوفاء بما وعد وأنذر.

«الحمد لله الذي بيده سعادتنا وشقاؤنا، وبيده الثواب والعقاب، نشكره ونحمده على ما أنعم علينا، وهو الله لا إله إلا هو، ومحمد رسول الله القائم على شريعته ونشر الإيمان به، والمكافح ضد حزب الشيطان، والمدمّر لعبادة الأوثان وبفضله انتشرت رايات العدل، وجفت نحور الجهل، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم.

الله يناديكم، فهلّا سمعتموه، إنه يطلب استجابتكم له، فهلا استجبتم؟ إن الجهاد في سبيل الله يفتح أمامكم أبواب جنة الخلد وصراطها المستقيم؛ فمن استجاب نجا من الشقاء وأصبح في درجة أعلى من ملوك الأرض، ومن لم يستجب أضاع الدنيا والآخرة؛ فمن أضاع هذه الحياة حمل في جنباته الخزي والعار، ومن أضاع الآخرة، استحق عذاب النار. يا عباد الله، اتقوا الله وحاربوا الضلال في أنفسكم وأخلصوا في إيمانكم، واجتنبوا الزلل في الخطيئة واذكروا يوم الحساب. لا تهربوا من الجهاد المقدس رغبة في الحياة المديدة وخشية الموت، فكل أمر مكتوب. والله عليم بمن ابتعدوا عن الخير. والموت يترصّدكم حتى منازلكم إذا حمّ القضاء المحتوم، والموت في سبيل الله فريضة على كل مسلم.

ثم اتجه نحو القبلة ليؤم المصلّين ، وبصوت نافذ مبتهل بدأ الصلاة بقراءة آيات من القرآن تدعو إلى الجهاد ، وسجد المؤمنون متجهين بقلوبهم نحو الله .

قال ابن نباتة كلمته ، وأخذ الناس يستعدون من أجل الرحلة العظمى . لقد ألغت الحرب أي افتقار مادي أو روحي لهم : فالكل يسعى إما للبطولة أو الغنيمة .

ــ نعم ، يا عليّ ، جميعهم سواء ، إنهم يحبون الحرب لأنها تنقذهم من كفافهم ، كما أن الدين غالباً ما يكون سعياً وراء السلطة .

ــ الدين هو الخير العميم في كل النفوس ، ألا ترين في حلب أن اليهود والنصارى والمسلمين يعيشون جنباً إلى جنب دون عذاب أو اضطهاد ؟ ولكننا الآن ، علينا الانطلاق نحو غزوات أخرى رائعة ؛ فالجند الذين هم في خفّة الريح سيُثقلون بأجمل السجاد الحريري ، وقد اشتاقوا إلى ذلك الإحساس العميق بالحرب ، والشعب راغب في جنّات الله ونعيمها الخالد .

صمت سيف الدولة متأملاً ثم قال بحنان :

ــ ولكن كيف سأغادرك ؟ وماذا لو تفاقم مرضك ؟

كنت أخشى البقاء وحيدة ، فقد كنت أشعر غالباً باختناق في تنفّسي ، ولكن سيف الدولة لم يكن بوسعه قط أن يركن إلى الهزيمة ، وكنت أحمل له في مخيلتي صورته وهو قوي رابط الجأش ، صورة المنتصر التي كانت قد تمزقت في مغارة الكحل .

إذن سأحيا حتى أراه ، وهكذا شعرت مع كل لحظة نقضيها معاً بعزم جديد .

انطلق الجيش بقيادة سيف الدولة ، وفي نفسه الرغبة في الثأر ، ليغسل بالدم عار أهله . واختار الرجال المفعمون بالحماس الحق والشرف لمحاربة بيزنطة .

انهزم العدو ، وتم اكتساح القرى ، والاستيلاء على الغنائم النفيسة ، وعاد الجميع منتصرين فخورين بما حققوا . وغادروا بلاد الروم ومنحدراتها الخصبة التي ترتسم فيها لوحات من الخضار . وخلّفوا وراءهم ذكريات غريبة اصطدمت فيها النوايا الحسنة بالقسوة . كانوا عديدين وقد أذهلهم الفرح ، يتنزهون على خيولهم في المنحدرات الوعرة ، يرددون من فم إلى آخر قصائد المتنبي بعباراتها الخالدة :

**جيادٌ تعجزُ الأرسان عنها ... وفرسانٌ تضيق بها الديار**
**وجيشٍ كلما حاروا بأرضٍ ... وأقبل ، أقبلت فيه تحار**

تخـــرّ القبائـــل ساجـــــدات　　وتحمـــــده الأسنَّـــة والشفـــار
كأن شعاع عيـن الشمس فيـه　　ففـي أبصارنـا منـه انكـــسار

***

وأنــت أبــرُّ مــن لــو عُــقّ أفنــى　　وأعفــى مــن عقوبتــه البــوار
وأقــدرُ مــن يُهَيّجُــهُ انتصــــار　　وأحلَــمُ مــن يُحَكِّمُــهُ اقتــدارُ

وأنا ، كنت أنتظر سيف الدولة وتزداد لهفتي لرؤياه كل يوم ، كما تزداد ظلال جديدة من الشقاء على الداء الذي أحمله مع الأيام .

خلال سباق العودة المجنون ، كان المقاتلون الأشاوس الفخورون بانتصاراتهم يرون في الأفق البعيد اتساع باديتهم الكثيفة برمالها الذهبية . كانت الصحراء في نظر هؤلاء الرجال الذين جرّبوا الصراع والموت إحساساً بطفولتهم ، وعودة إلى مأواهم ولقاء غير محدود بين الشمس والسماء اللازوردية ؛ كانت الصحراء في صحوها الهادئ ، وصمتها العميق تدخل الاطمئنان إلى نفوس من أحبوها ، ولكن ، واحسرتاه ، كانت ضحية الإعصار ؛ هبت رياح الخماسين ، وصعدت الرمال الثائرة نحو السماء لتتفتت وتتحول إلى غبار جاف خانق ، وتهافتت الصحراء من كل حدب وصوب ، في حركة شاقولية سريعة تحجب ألوان الأفق ليصبح كل شيء قاحلاً .

أخذت الرمال تفترس الرجال التائهين الذين التهبت عيونهم من أوار الشمس ، وتصدّعت حناجرهم ، وتشققت شفاههم وسالت الدماء منها . وخلال اندفاعهم الغريزي نسوا غدر الرياح . أفزعت عواصف الغبار الجمال التي توقفت عن السير ، وأخذت ظلمة السماء تتزايد ، وأضاف صوت رياح الخماسين الفظّ إلى ظمئهم الذي لا يُطاق فرقعة كانت تلهب صدورهم وتخنق نفوسهم .

كانت الرياح ترفع في البيداء الحارّة أعمدة هائلة من الأعاصير توقف التنفّس ، وتضع الناس بين براثن الموت البطيء ؛ وكان أنين المحتضرين يتلاشى بين حبات الرمال .

كان الجيش يحلم بالينابيع ، بالبرك ، بالرطوبة ، وربّما بقطرات الندى . ومضت أيام ، وهو يصارع الموت بكل ما في وسعه . كان وهو ينثر الغنائم هنا وهناك يدعو الله أن يأخذ بيده .

بدا أن أوار الرياح قد هدأ . وشاهد الرجال الذين هزمتهم هذه الرياح عن بعد واحة غنّاء، زرقاء المياه ، فيها أشجار نخل شامخة ، فهرعوا إليها ، وهم يشكرون الله على ما أنعم عليهم ، بيد أن المشهد الذي وعدهم بالماء والحياة تلاشى خلف جبل رملي جديد ، فلم يكن ذلك سوى رجاء كاذب وسراب ضائع .

كافحوا على هذا النحو أياماً وليالي ، متفرقين في تيه موحش لا نهاية له ، وعمد أكثرهم إقداماً ، بعد أن أحسوا بالهلاك ، إلى النوم على حبات الرمل الخشنة نوماً لا يقظة بعده .

وهكذا هلك جيش سيف الدولة في كفن من الرمال .



# 20

كان الحريم ينتظر مولاه وهو منهمك بكسله. وتحت قبابه المنخفضة المظلمة، اكتشفت أن جميع الأمور التافهة التي كانت تؤلمني، فيما مضى، أصبحت تتتابع دون أن أشعر بها. كنت أدرك أني مقبلة على الموت، وكان الترفّع عن كل شيء، ما عدا سيف الدولة، يحملني على التسامح والرحمة. كنت راضية عن نفسي لأني ما أسأت لأية امرأة ممن كن يغرن مني، ولم يكن ذلك بالأمر العسير علي، لأني كنت، على امتداد إقامتي، الأثيرة لدى سيف الدولة.

كان السعال غالباً ما يقطّع أنفاسي، والاضطراب يكاد يوقف قلبي عن الخفقان. وكانت زينب البدوية التدمرية، تقضي الساعات معي، لتروي لي القصص الرائعة عن البدو الرحّل، والبادية، والحكايات العربية التي تبرز السخاء والوفاء. كنت أصغي إليها متأملة، وقد أرهقني المرض، متأثرة بحماسها الدائم للرواية.

كان الليل رهيباً. وخشيت أن يأخذني في طيّاته، ولكني كنت أجد نفسي ما أزال في اليوم التالي على قيد الحياة أنتظر عودة سيف الدولة.

تقدّم الرجل الشاحب بخطوة متثاقلة، مجرّداً من أي عتاد، وقد غارت وجنتاه من الإرهاق، وتشنّج فمه المنفرج من الظمأ، وتورّم جفناه من الحروق. وصل الرجل إلى نهاية الأثر الذي اقتفاه إلى حيث ألقى أحد النسّاك بخيمة من الوبر على مقربة من غدير مياه. نظر إلى حيث كانت الشمس تغرب، واستدار نحو الجنوب باتجاه القبلة ليصلي:

﴿الحمد لله ربّ العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين ...﴾

وارتفع صوت أجشّ:

ـــ من يتردد على هذه الأرض التي لا يزورها إلا الأشباح؟

ـــ امرؤ ينشد ماء الشرب.

واقترب مخلوق ذو قامة ازداد تداعيها على ضمورها. وكانت شيخوخته المتغضّنة، المجعّدة من أوار الشمس، توحي بشقاء لا شعوري.

ـــ هذا الماء هو ملك الله وحده وملك عبده الحكيم خالد، الذي توفاه الله منذ ثلاثة أشهر.

ـــ إن للأشباح كل واحات الجنّة لإرواء ظمئهم وشفاء غليلهم.

ـــ جاء خالد من بعيد، من بلد يجري فيه اللبن والعسل، ودفعت به رياح الخماسين، في ليلة هوجاء، إلى هذا المنعزل القاحل الذي لا تسمع فيه سوى هزيز الرياح، وأعطيته ما بقي لدي من ماء، كنت أحضره من مسافة بعيدة، ليشرب، فقد كان شاباً جميلاً والظمأ يعذّبه. فقال لي: «يا أبت، إنّ علي أن أؤدي جزية لله لك، سأحضر الماء من النبع البعيد مع كل فجر جديد، وستشرب حتى ترتوي، أما الباقي فسأتقاسمه بين الصحراء وبيني..» وظل عشرين عاماً يسقي من حصته في الحياة الصحراء الجامدة الشرهة. «وفي اليوم الذي مات فيه، نبعت المياه في هذا الغدير، وأصبحت أنا من ينقل المياه من النبع البعيد، لأن هذا الغدير لا يخصني».

ـــ هلّا سقيتني كما فعلت من قبل مع خالد الحكيم؟ ولن أكون مديناً لك إلا بالعرفان، فالماء هبة من الله.

قدّم العجوز الكأس من منبعه البعيد.

واقتلع الرجل الراضي الجوهرة من عمامته، ونظّفها براحة يده ووضعها بين اليدين المرتجفتين اللتين منحتاه أعزّ ما تملكان.

عاد سيف الدولة إلى قصر الحلبة دون مرافقين، ولا أصدقاء ولا جيش. كان بعضهم سيلتحق به فيما بعد، وكنت ما أزال على قيد الحياة في انتظاره.

عاد مع إشراقة الصباح، كما يعود عصفور إلى عشه ليضمد ما أصاب جناحيه من جراح؛ لم يستعد أحد ذكرى عوداته المظفّرة، على أصوات قرع الطبول، سوى أن الأمير كان يتقدم بتلك الخطا الوقورة، وعيناه ما تزالان متّقدتين شامختين، ولكنهما تفيضان بعاطفة مؤلمة زاد الإخفاق من عمقها.

دخل حجرتي، ووجهه مشرق بحنان مهزوم.

ـــ ياسمين، أحبّك، وتبّاً للرياح.

لم يكن يتحدّث إلا قليلاً، كان كئيباً متأملاً، ولكنه أصرّ على أن يدفع بالأطباء

لاكتشاف علاج سحري ، وكم عَرَض من مكافآت خارقة ، ووعود خلّابة ، وكم من كلمات ضائعة اصطدمت بالعجز التام أمام الداء العضال .

أما أنا ، فكنت راغبة في الحياة ، كي لا يبقى سيف الدولة وحيداً في الوقت الذي كانت تدور فيه عجلة القدر .

وذات صباح ، غادرني باكراً واتجه نحو إطلالة تشرف على المنحدر الشرقي لجبل الجوشن ؛ كان غالباً ما يرتاد ذلك المكان ليشاهد سباقات الخيل التي كانت تجري في الوهاد ؛ فقد كان الحصان في نظره أرفع الحيوانات مكانة وأجملها ، وحين يندفع فرسان النار بسرعتهم الجامحة ، كان يعيش ذكرى اشتداد أوار المعركة ويشعر بالانفعال يهزّ كيانه . وكما ترسخ الشعائر بشدة في ذاكرته ، كان يعود مباشرة إليّ ، وبحماس طفولي كان يروي لي كل ما جرى .

غابت الشمس ، وأشرقت الشمس ، ولما يعد سيف الدولة .

كان المؤذّنون يرفعون أذان الظهر حين برز فجأة وجه سيف الدولة المشرق ، وكانت ترتسم على شفتيه ابتسامة هادئة يشوبها قلق خفي ، قال :

— بلغ النور مبلغاً من الضعف حتى لم يكد يُرى ، ثم أصبح عذباً ثم قوياً ثم ساطعاً ثم باهراً ، حتى أصبح يشعّ من كل مكان ، وأدركت أن هذه آية من آيات الله ، قضيت الليل في الصلاة ، ومع بزوغ الفجر ، كنت على متن جوادي في أسفل المنحدر حيث جرى سباق الخيل ، بحثت في كل مكان ، ولكن النور كان قد تلاشى ، ولكنه بعد أن ضمّخ جسدي بالطيب .

لم أقاطعه .

— وحين عزمت على العودة ، خائباً ، تعثّر حصاني بحجر عليه كتابة منقوشة ، سرعان ما قرأت خطوطها القديمة : « هذا قبر المحسّن بن الحسين بن علي بن أبي طالب » .

كانت هذه الأسماء بأسرها مألوفة لدي . وتمالكت نفسي لألزم الصمت في مواجهة اضطراب سيف الدولة الذي أصبح واضحاً .

كانت نساء أسرة الحسين قد وقعن في الأسر ، واقتضى الأمر نقلهن من العراق إلى الشام . وفي طريقهن وضعت إحداهن مولودها قبل أوانه ، في سفح جبل الجوشن . بينما أكّد آخرون أن المولود عاش تحت اسم المحسّن .

وأضاف الفقهاء :

في ذلك العهد ، كان يوجد منجم في هذا الموضع ، ولما رأت زينب العاملين في المنجم يهزؤون بهن ، دعت الله عليهم ، فنضب المنجم على الفور .

وسرعان ما اعتقد كل فرد أنه يرى النور يغمر سفح جبل الجوشن . وهرع الناس من كل حدب وصوب ، من فقهاء وأمراء وتجّار أثرياء يتنافسون من أجل بناء ضريح يمجّد المحسّن .

بيد أن سيف الدولة كان مصرّاً :

ـــ إن الله اختارني لأبني في هذا المكان المزار باسم آل بيت النبي .

كان سيف الدولة يحمل بين جنباته إعجاباً لا حدّ له لأبيه الذي فقده وهو في ريعان صباه ؛ والحق أن أبا الهيجاء عبد الله كان رجلاً رفيع الشأن ، وهو أول مسلم بنى قبة على أربعة أقواس على ضريح عليّ في النجف ، مجسّداً بذلك مفهوم المشهد .

كان البناء يستمر منذ الصباح حتى المغيب . وكانت أيام الصيف تبدو أطول ، من أجل الإسراع في مهمة العمال السعداء في مساهمتهم في عملهم الذي يتضرعون به إلى الله من أجل تحقيق مقام مقدس بمشيئة الله .

وبعد أشهر مضت ، كان يمكن للمرء أن يقرأ الكتابة الكوفية على الباب الأسود الذي يعلوه قوس :

قام ببناء هذا المشهد المبارك ، راغباً في رؤية وجه الله ، وأن يكون بجواره ، باسم الشيخ المحسّن ، بن الحسين ، بن علي ، بن أبي طالب ، عليهم السلام ، الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان ، عام ٣٥١ .

# 21

ـــ يُقالُ ، يا علي ، في هذا الحريم إن قيساً ، يحتضر في أعلى أبراج القلعة . إن عزلته الغريبة علمته ألا يأمل إلا في الله . إنه يرفض المعالجة ولا يقتات إلا بلبن الإبل . إن جلده يتقلّص على أوردته الزرقاء المتضخمة . لا يتحدث إلا نادراً وهو منقطع إلى السجود . وفي عينيه الغائرتين المندملتين من الجراح ، قد ترى أحياناً انعكاساً مترقرقاً ، وفمه الخالي من الأسنان ينطبق على بعضه ؛ أما عباءته فقد حال لونها ، وامتلأت بالغبار .

ـــ سأذهب لمساعدة قيس ، فهو يتألم بسببي . لقد شاهدني وأنا أترعرع في الموصل ، وكان يحب أن يروي لي الحكايات الخيالية . وحين أرشدني إلى النجوم ، أول مّرة ، مددت يدي الطفلة نحو السماء لألامس إحداها ، فحملني على كتفه ، لأقترب من حلمي ، ذلك الحلم المصنوع من النجوم ، ذلك الحلم الذي وهبني إياه وهو على أهبة فقدانه .

ـــ إذا كان قيس قد فقأ عينيه ، فذلك لأنه كان يرفض النبوءات المشؤومة التي كان يكشف عنها في النجوم ، ربّما استطاع عيسى الرقّي ، وهو أمهر أطباء هذا البلاط أن يسعفه أو يخفف من آلامه ؟

ـــ سأذهب بنفسي إلى فراشه ، وسيُدرك أنه ولو تنكّر للعالم ، فالعالم لن يكفّ عن ذكره . كم يؤلمني أن أرى سقوط من أُحبّ . كان في حدائق الموصل صلباً رائعاً وكانت ضحكاته تتصاعد فتطغى على صوت الشلالات التي تتدفق في قنواتها المحفوفة بالزهور . لقد تراكمت تلك السنوات التي حسبناها بطيئة ، وبطيئة جداً ، بمكر وهي تخطف شبابنا . سنذهب أنتِ وأنا ، خفيةً ؛ لن أستطيع أن أمنحه كيس الذهب ولا الأحجار الكريمة ، ولا ألوان الحرير الناعم . إن الهبة الوحيدة التي يمكنه إدراكها ، هي المدالية الفضية المعلقة على عنقي . إنها باسم والدي ، وقد رآني أضعها منذ أمد بعيد . سنذهب أنت وأنا لنحدثه عن الماضي ، عن تلك الأيام الهاربة ، عن الزمن الذي عاش فيه سعيداً .

كانت تلك الأيام من أيام الصيف الحارّة. وفي تلك الساعة التي يبحث الناس فيها عن الظل والنسمة، خرجنا، سيف الدولة وأنا، نجتاز الشوارع المبلّطة بأوار الشمس، والحافلة بالأصداء، وكانت القلعة تختنق بلهيب الهاجرة والضوء.
ـــ افتحوا الأبواب.

علا صوت سيف الدولة بلا صدى.

لم يتحرّك الحرّاس، فالتعليمات كانت صريحة.
ـــ افتحوا هذه الأبواب، باسم الله.

حينئذٍ، تعرّف أحد الحرّاس على صوت ذلك الذي حارب من أجله، ذلك الصوت الذي كان يخطب في الجيوش، صوت القوة والسلطة. جاء يقبّل قدمي سيف الدولة، وهرعنا داخل القلعة الوقورة، المحاربة، الصلبة، الخالية من البشر، وكنت أدخلها لأول مرة.

قال الرجل الجالس القرفصاء على الأرض، وقد تقلصت أصابعه من شدة المرض، بصوت منخفض غاضب:
ـــ من هذا الذي يودّ أن يعكّر صفو زهدي وعزلتي؟ إن هذا البرج هو صومعة للصلاة والنسك.

انحنى سيف الدولة وقبّل اليدين الهيكليتين.
ـــ أنا من يتألم معك، أنا من لا ينساك.
ـــ ولدي، إن صوتك يمسّ شغاف قلبي.

وتردد...
ـــ ولدي... أميري.

تسمّرنا من الانفعال والحنوّ والألم. واختنقت العبارات في الحلق، ولكن الرجل الذي اعتاد الصلابة مع سنوات من الندم والتقشف، والقوة بعزلته، لم يكن يبالي بحرارة برجه النتنة، والذي كان منيعاً بمقدار بصره المفقود، مريضاً، جائعاً، قال:
ـــ أي بنيّ، أما زال شعرك جميلاً كما كان فيما مضى؟

نظرت إلى سيف الدولة الذي كان في غاية الاضطراب وهو يخلع عمامته ويضع يديه الصلبتين على رأسه.
ـــ لعلك تعلم يا بنيّ أني لم أعد أرى سوى الليل، الليل البهيم.
ـــ ومع ذلك فهو طريق النجوم.

ــ لم يعد هناك سوى الليل الحالك .
ــ يا أبتِ ، ألن يتألق أي شيء من أجلي ؟
ــ الليل الحالك
ــ لا شيء قط ؟
ــ لن تنير الظلمات سوى النار .

خلع سيف الميدالية المعلقة على عنقه .

ــ إليك عربون الوفاء .
ــ ارحل ، يا بني ، ودعني أموت بسلام .

حين غادرنا قيساً ، كانت برودة المساء تحرك الشوارع بإيقاعها السريع . اجتزنا ، سيف الدولة وأنا ، حشود المارّة دون أن ننبس ببنت شفة ، ودون أن يتجرّأ أحدنا على النظر إلى الآخر . لقد وقعنا في كمين قيس ، وألمه الممض ، وشقائه المأساوي المستسلم . التففنا حول أسوار القلعة ، في نزهة طويلة ، وهروب عبثي مثقل بالرؤى المثيرة للقلق والعبارات الملتهبة بالأسى .

وبعدئذ اجتزنا سوق العطارين بعطوره الأخّاذة ، وخان الصابون الذي ينشر الطيب ، وسوق الحبال الكثيف وكأنه السجن . وسرعان ما وصلنا إلى الساحة الكبرى حيث كان ينعقد سوق النخاسة : وعلى منصة خشبية موقتة ، كانت هناك فتاة ذات جمال ساحر ، شعرها أحمر بلون النار ، وبشرتها وردية كأنها شمس المغيب ، وعيناها خضراوان بلون كؤوس الزهور ، تغضّ من بصرها خجلاً ، كانت الفتاة واقفة على المنصة ، تشخص إليها الأبصار برغبة فاسقة ، وشهوانية جامحة ، كانت جارية للبيع .

وعلى مقربة منها ، كان ينتظر رجل منهار ، إنه صاحبها الذي يعشقها ، كان يردد بأعلى صوته :

ــ كنت أتمتع بالرخاء ولكنني بدّدت كل شيء ، كم بعت من أراضٍ وكم أضعت من مواشٍ ، وكم فقدت من منازل ، كنت أتمتع بالرخاء ، وبدّدت كل شيء . أنا أحب جنان لأنها الجمال بعينه . وأنا الآن أبيع جنان لأنقذها من بؤسي .
« كنت أتمتع بالرخاء . . . »

توقفنا هنيهة ؛ كان وجه العشيقة يفيض بالدمع ، وعيناها مفعمتين بالأسى . وسأل سيف الدولة بهدوء :

ـ كم يطلبون ثمناً لهذه الآية الشابة؟

فأجاب النخّاس: « ستون ديناراً ».

ـ سأعطيك مائة ثمناً لها.

في تلك اللحظة التفتت جنان نحو صاحبها قائلة:

ـ الوداع يا أغلى حبيب، سأدخل إلى أماكن لن أراك فيها قط، ولكن صورتك ستلاحقني في كل مكان. لعل المال الذي تلقيته ثمناً لي سيزيل كل آلامك.

وأجاب صاحبها:

ـ تمتعي بالحياة، يا جنان، تمتعي واذكري بين حين وآخر ذلك الرجل الذي يعبدك.

في تلك الأثناء، أمسك سيف الدولة الجارية الحسناء من يدها، وردّها إلى صاحبها.

ـ لن أفرّق أبداً قلبين متحابّين، هاأنذا أعيد إليك عشيقتك، وليسعد كل منكما بالآخر، وأفيضا من سعادتكما على الآخرين. واحتفظا بالدنانير، فهي ستساعدكما في حبّكما.

اقتلعَنا سوق النخاسة من خمول القلعة المثير للقلق، ومن سجينها، ذلك السجين الحر، السجين الكئيب، الرجل التائه.

ـ ياسمين، لقد أعدت الفتاة إلى الرجل لأني لا أستطيع العيش بدونك قط. سأبقيك على مقربة مني حتى تصبح الظلال نفسها بلون أحلامنا.

في تلك الأثناء، كان نقفور فوكاس يعود منتصراً من جزيرة كريت ويحتفل بالنصر الكاسح في مدرّج بيزنطة، وكافأه رومان الثاني بإعادته إلى تولّي مهامه كدمستق للمشرق التي كان أخوه ليون يقوم مقامه فيها. وكان الرهان الأكثر رهبة الذي طرحه للقدر وللإمبرطورية هو أن يهزم الحمداني الذي لا يُقهر، وحامي حمى الإسلام. وفي حلب الشهباء، في عقر داره وعاصمته.



# 22

كان الشتاء يجمّد اللهيب في الموقد ويسلّط على الطبيعة القحط. كان الأكبرون سنّاً يقولون إنهم يعيشون في فصل سيىء الطالع يجمّد كل ولادة جديدة. وكان الفقراء يتزاحمون حول المجامر التي تكدست فيها الأغصان الرطبة، يحلمون بفصول الصيف البعيدة وبتفتح الأزهار.

على الرغم من كل هذه الأسحار المرتعشة بالرياح. كان سيف الدولة يغادر الحلبة في الصباح الباكر على متن جواده العملاق. كان يعدو مسرعاً عبر حدائق وبساتين حلب التي لم تكد تصحو من رقادها، ويتيه في الصحارى الكثيفة الصامتة. كان يهرع قبل طلوع النهار ليرى انبثاق قرص الشمس من خلال كثبان الرمال القائمة في تلك الساعة التي يخفي فيها الجنّ أشباحهم في الرمال المتحركة. وهكذا كان يرقب، وهو يتجه بوجهه نحو الشرق، معجزة العالم العظمى التي يتفجر منها الضياء. كان يهوى صحراء هروبه التي كان يخشاها وكأنه متسلل، تلك الصحراء التي علّمته أن يتأمل حياته بأدقّ خطواتها وما خفي من أشكالها.

وحين يعود من سباقه المنفرد، كان يلج إلى حجرتي وكنت أدرك أنه خلال نزهته التائهة كان يتخلص من جزء من آلامه وبعض أوهام سعادته. كان يعود وكأنه أنزل عن كاهله عبئاً لا يود أن يسبر أغواره، لأنه كان يحاول أن يدرك معنى أبعاد الاستسلام.

ـــ ياسمين، إن الشمس تشرق في الصحراء، وأنا لا أتأمل في ألوانها، ولا أنظر في تألقها على الرمال، وأجهل حرارتها الخجول. الشمس تشرق في الصحراء، ولكنني لا أنظر إلا إلى جبروتها، وقدرتها على العدالة التي تؤرجح الحياة بين الراحة والعناء وبين الاستسلام والعناد.

وبينما كان سيف الدولة يروي لي أدق التفاصيل عن جولته الصباحية ، وفق مشيئة نزوته ومخاطرته على الكثبان ، ظهر عبيد ، قائد الحرس . وجعلني شحوبه الواضح أعتقد بأن ألماً شديداً قد اعتراه . ولم يكن هناك ما يثير الرعب ، ولكنه بدا مرهقاً ، ولكنه لم يتردد وقال :

ـــ لقد زالت عين زربة من الوجود ، وذوت حدائقها ، التي كانت تنافس حدائق دمشق ، تحت سنابك فرسان الروم . ودُكّت حصون أسوارها المزدوجة ، وهُدمت مساجدها ، فاجتياح جيش الروم كان ساحقاً .

فوجىء سيف الدولة وسأل :

ـــ لم يطلب أمير عين زربة وهو من عمّالي النجدة . لماذا لم يطلب العون والتعزيزات ؟

ـــ لقد لجأ نقفور فوكاس إلى الخدعة ، واقتحم جيشه المؤلف من ستين ألف عسكري عين زربة كما يكتسح الجراد الصحراء ، وقد ارتاعت الحامية العربية من عنف الهجوم . وكان الروم قد حاصروا المدينة ، وأحدثت مطارقهم الثغرات في أسفل الصخور .

ـــ وماذا حل يا عبيد ، بسكان عين زربة ؟

ـــ بما أن فوكاس لم يكن على علم تام بوضع الحامية فقد سمح للسكان بالبقاء على قيد الحياة مع إمكانية اصطحاب ما غلا ثمنه من متاعهم . ولكن ، مع الأسف ، تغيّر كل شيء فجأة حين دخل الروم المدينة وشاهدوا مدى الشدّة التي كان عليها السكان المحاصَرون الذين لم يكن لديهم الوقت الكافي ليتزودوا بالمؤن لأن الهجوم جاءهم على حين غرّة . فما كان من هذا القائد الذي ندم على سماحه لقوم هالكين بالبقاء على قيد الحياة إلا أن تراجع عن قوله وأطلق لسخطه العنان ، بتشجيع من الجنود المتلهفين إلى اقتناص الغنائم .

ـــ وماذا حلّ ، يا عبيد ، بسكان عين زربة ؟

ـــ طاف المنادون في أنحاء المدينة ينذرون السكان العُزّل مسبقاً ، بأن عليهم الاجتماع في الحرم الكبير للمسجد الجامع ، وهؤلاء وحدهم سينجون من الموت . واستولى الذعر والهلع على كل السكان مما بذر بذور الشك في نفوسهم ، ودفع بآلاف الرجال مع نسائهم وأطفالهم ليهرعوا إلى الساحات الفسيحة المكشوفة ، وأصبحوا عرضة لتقلبات الجو في تلك الليلة ببردها القارس . وفي اليوم التالي ، قام الروم بذبح كل أولئك الذين لم يلجؤوا إلى المسجد . ولدى اقتراب ساعة الغروب ، أمروا من بقوا على قيد الحياة أن يذهبوا أنّى شاؤوا ، دون أن يسمحوا لهم بالغذاء ولا بالغطاء ، ولم يكن لديهم سوى ألبستهم الخفيفة التي كانوا يرتدونها . وكل متأخر بعد غروب الشمس سيضرب عنقه بالسيف .

ـــ وماذا حلّ بهؤلاء التعساء في هذا الجو البارد المثلج .
ـــ كان المشهد فظيعاً . كان الفارّون التعساء يتدافعون نحو أبواب المدينة ، مصطحبين أطفالهم بأقدامهم الدامية من شدّة الجري ، وحاملين نساءهم اللاتي كن يصطدمن بالحجارة النافرة ، يائسين من المستقبل المغطى بالثلج وكأنه إحدى شواهد القبور . كان جنود الروم ، هؤلاء الروس ، هؤلاء الصقالبة ، وكل هؤلاء الفلاحون الآتون من الأناضول يطلقون الضحكات الشرسة ، مستخدمين السيوف والرماح لتعجيل السباق المتعثر والمرهق لهؤلاء الضحايا . هلك المئات من النساء والأطفال ، مختنقين بين أمواج هذه الفوضى المثيرة للرعب . أما من بقوا على قيد الحياة فقد وصلوا ليلاً إلى الريف المتجمد ، وكانوا يعانون سكرات الموت ببطء ، بلا قوت ، حفاة الأقدام ؛ وعلى الرغم من الشدّة التي كانوا يعانونها ، فقد ماتوا برداً وجوعاً ، ومعهم ذكرى عين زربة التي كانت في غاية الازدهار .

« كانت الأسلاب هائلة ، والغنيمة عدد وافر من الأسلحة : سيوف دمشقية رائعة ، وأقواس مرصّعة ، وخناجر تتألق بالصدف والفيروز ! ففي عين زربة ، كان أمهر صناع الأسلحة يتفوّقون بإبداعهم وخفة أناملهم . والآن ، غابت عين زربة عن الوجود ، قطعوا أشجارها المثمرة ، ونخيلها وأشجار بلحها . أما الحقول المجاورة فقد أُتلفت عن بكرة أبيها .

أصغى سيف الدولة باهتمام وقال :

ـــ إذن فقد تمكن نقفور فوكاس بسرعة مسيرته الصاعقة أن يستولي على عين زربة وحصونها المنيعة التي استحقت اسم طروادة الحديثة . لم تعد بساتينها الفيحاء تغدق الثمار على الأيدي الغريبة التي قطعت أشجارها ، ولم تعد حدائقها ، تلك الجنّات المتسللة إلى الأرض ، تستوقف أي عابر سبيل بنسمات عطرها . لم يبق أي شيء من معالم عين زربة التي كانت تتمتع بالرخاء ولا من أسوارها العملاقة ذات الشموخ الأسطوري ، سوى أرض جدباء لا توحي بأية ذكرى لعظمتها الغابرة . ها قد بدأ الآن غزو كيليكيا ، والروم يودّون الاستيلاء على ممرات جبال الأمانوس لينقضّوا على مياه نهر قويق في حلب الشهباء . ومن هذا الممر البالغ في اعوجاجه وصعوبته ، عبر غزاة العالم من أجل اجتياح سورية .

وعاد عبيد إلى الحديث :

ـــ ومع ذلك ، فإن جيش الروم المنتصر أخذ طريق العودة ، لأن نقفور فوكاس ، على الرغم من أنه محارب شرس طاغية ، فإنه ورع مثالي في تقاه وهو في غاية التقشف . وهو مُحاط بالرهبان ليستشيرهم في القضايا الروحانية ، ولا يأكل اللحم مطلقاً تعبيراً عن توبته

وتضحيته . في شخصيته المتناقضة يمتزج العنف بالتصوّف ، وما نزعته العدوانية إلا تعبير عن شدة ورعه . وبما أن الروم قد بدؤوا صيامهم ، قرر دمستق الشرق الأعظم العودة على عقبيه ليحتفل بعيد الفصح بجوار القيصر الشديد التمسك بنصرانيته في القصر المقدس .

كان سيف الدولة مستغرقاً في تأملاته ؛ قال :

ــ أنا الآن ، يا عبيد ، أسد جريح ، والمثل العربي القديم يقول : « إذا وقعت البقرة كثرت السكاكين عليها » . مع انحطاط الخلافة العباسية ، يمكن لجميع هذه الأراضي التي فتحتها ، وأحببتها ، أن تتفتّت وتسقط في حمأة أسوأ أنواع الفوضى . لقد حافظت عليها من ميّافارقين حتى تدمر ، من خلال حكم كان غالباً استبدادياً ولكن السلام كان يخيّم عليها . لقد أخضعت أقوى القبائل ، وجعلت بيزنطة الخالدة تتميّز من الغيظ . والآن ، أنا أسد جريح أسمع زمجرة الفتنة بين عمّالي الذين يريدون الإجهاز عليّ .
« عبيد ، لن أكرر ذلك عليك : نعم ، أنا أسد جريح ، ولكني لن أستسلم إلا للموت » .



خرج عبيد ، وتقدمتُ خطوة نحو سيف الدولة لأكون أقرب إليه ، ولكني سرعان ما أدركت أن الغموض يكتنف ألمه .



# 23

حين كان يودّ ابن نباته، أعظم فقهاء الإسلام، أن يمثل بين يدي سيف الدولة، كان قصر الحلبة يتوارى خلف غطاء من الزهد، حتى يُقال إن مباهج الحياة ونعومة الطنافس، وبذخ القاعات، تتوارى جميعاً، بأسلوب غامض، في ظل من التقشّف والتحفّظ.

مَثُل ابن نباتة بين يدي سيف الدولة محاطاً باثني عشر فقيهاً يقومون مثله بتدريس الفقه في المدرسة المجاورة للجامع الكبير. ماذا كان يريد هذا الواعظ الكبير ذو الفصاحة الفائقة في جمالها، والذهن المتألق الذي تكشف عيناه المتوقدتان عنه، والذي تجمع حياته الخالية من العيوب بين الزهد والإشراق؟

— الحمد لله رب العالمين، وحده لا شريك له، له الملك، يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء، وهو على كل شيء قدير. لا يمكن لأي من الناس مهما كان جبروته أن يفسد مجرى الأحداث وعليه أن يخضع للمصير المكتوب في لوح محفوظ منذ الأزل.

لا تعذّب نفسك بعَرَض الدنيا من الآلام، إن الإيمان بما كتبه الله جزء من العقيدة الإسلامية. فَقَدَرُنا بماضينا وحاضرنا ومستقبلنا مكتوب بمداد من نور لا يستطيع سوى المَلَك إسرافيل قراءته. وسيسجّل حتى يوم القيامة كل ما يجب أن يحدث في العالم، ولن يستطيع الإنسان تغييره.

«الحمد لله، سيّد الكائنات، هو الخالق، قضاؤه محتوم، وأحكامه لا تحول ولا تزول».

اشترك الفقهاء معاً بقراءة بعض الآيات القرآنية. وخفَت حدّة توتر الاجتماع وساد جوّ من المودّة وتشعبت الأحاديث. وعاد ابن نباتة إلى الكلام بصوت مرتفع ليعلو صوته على كل الأصوات.

— في حلب، رجل منصف مستقيم له شأنه العظيم في العلم والمعرفة. يكرّس كل ما لديه من معارفه لخدمة المرضى. حقّاً إنه ليس مسلماً ولكنه يحترمنا جميعاً. إنه شهم كريم ولكنه

يكابد ظلماً غاشماً . إنه عيسى الرقّي ، أمهر أطبائنا ، وهو يرقد في سجن مظلم ، رماه فيه واليك قرغويه خلال غيبتك . إن هذا السجين البريء الوفي صابر مؤمن بعودتك .

امتقع لون قرغويه ولكنه احتراماً لابن نباتة ، انتظر استجوابه . وأخفى سيف الدولة غضبه بتلون وجهه الذي لا يكاد يُرى وقال بصوت هادئ :

ــ لماذا أُلحق هذا العار بعيسى الرقّي ؟

ودّ قرغويه لو يتمكن من رباطة جأش الواثق من نفسه :

ــ وردني ما يُشعر أن ملك الروم استخدمه للاعتداء على حياتك .

ــ وهل هناك دليل على ذلك ؟

أُسقط في يد الوالي ، وجعله تلعثمه وحيرته الممزوجة بالخوف يبحث عن كلمات لم تأت لتسعفه .

ــ لقد جاء أحد عيوننا في بيزنطة بهذه المعلومات ، وأنا أخشى أسوأ من ذلك .

لم يجب سيف الدولة ، بل التفت نحو عبيد ، قائد حرسه ، وتحدث إليه بصوت منخفض . وعلى الرغم من الصمت المطبق المخيّم على الجمع ، لم يتمكن أحد من التقاط أية كلمة . وبعد بضع دقائق ، تقدم عبدان من الخصيان يحيطان بعيسى الرقّي الذي كان يسير قلقاً منحنياً . واستقبل سيف الدولة طبيبه بعبارات الترحيب وقال له :

ــ يا عيسى ، لديّ عدوّ أريد أن أقضي عليه سرّاً ؛ فعليك أن تعدّ لي سماً زعافاً لا يمكن اكتشافه .

فأجاب عيسى بشهامة ورباطة جأش :

ــ مولاي ! إني لم أتعلم سوى تركيب الدواء الذي يطيل حياة البشر . ولم أتعلم تركيب ما يقصّرها . يؤسفني أن أقف ضد رغباتك ، لأن تديّني وخلقي يرغماني على ذلك . إن ديني يطلب مني أن أفعل الخير حتى مع أعدائي ، ويحرّم علي أن أسيء إلى أولئك الذين لم يفعلوا شيئاً معنا . لقد تم اكتشاف الطب ، ذلك العلم الربّاني ، للمحافظة على البشر ، فلا يجوز استعماله لدمارهم . لقد قضيت الساعات في محبسي ، وحيداً ، أترجم الكتب الإغريقية إلى اللغة العربية ، وأضع التعليقات على مؤلفات أبقراطس ؛ فالعمل يقضي على الملل الناجم عن بطء إيقاع أيام السجن التي لا نهاية لها . سأعيش أيضاً لأمد بعيد في سجني الرطب ، بيد أن قلبي سيبقى صافياً وضميري مطمئناً .

وبإشارة من سيف الدولة، تقدّم اثنان من العبيد بمنضدة مغطاة بالبروكار الأرجواني حيث تتجاور عليها الحلي الماسية، والأقمشة الثمينة، وأكياس الذهب، مع الأسواط وأدوات التعذيب. وقال سيف الدولة:

— عليك، يا عيسى الرقّي أن تختار بين هذه الثروات المعروضة أمام عينيك وعذابك التي ترى عدّته الرهيبة.

أجاب عيسى بازدراء:

— إني أجهل كل ما يمكن أن يقصّر من عمر البشر، افعل ما بدا لك بي، وأنا على استعداد لتكبّده.

حينئذٍ التفت سيف الدولة نحو قرغويه الذي تشنّج وجهه من الاضطراب وقال:

— يا قرغويه، إني لم أشك ولا للحظة بأمانة عيسى الرقّي، وأنا أُقرّ بأني معجب بعلمه ونزاهته. ولكني أردت أن أثبت لك، ولك فقط، أن العار هو في ارتكاب الجريمة وليس في العقاب، وأن الحقيقة ستظهر حين يتم السعي وراءها.

ابتسم ابن نباتة معبّراً عن رضاه، وأكبر الفقهاء معاً حكمة أميرهم وعدالته. ثم تم إكساء عيسى الرقّي بعباءة مطرزة بالأحجار الكريمة، وأعيد اعتباره في البلاط. أمّا قرغويه فقد أخذ يعاني من عدم ثقة المحيطين به الذين وجدوا فيه رجلاً محباً للثأر؛ لم يحدث من قبل أن وبّخ واليه على خطأ ارتكبه، بيد أن مجرى الحياة، وموقف الآخرين، بالإضافة إلى طيبة عيسى تجاه جلّاده، كل ذلك علّم الرجل أن للقوة حدود في مواجهة القيم الحقيقية.

حين جاء سيف الدولة ليراني، كنت أطرز باللؤلؤ وسادة لطفلتنا، تلك الطفلة الحارّة في عذوبتها؛ كان بكاؤها أشبه بأنغام القيثارة، وضحكتها غنوة، وكانت تفتح عينيها المكحلتين تمعن النظر في ألوان الشمس وقوس قزح الذي يعقب المطر.

— ياسمين، دركتُ تدبير الله الذي لا يمكن تغييره، لقد أَبْعَدَتْ أنفاسك التي لا تخرج بسهولة من حلقك عني بركة الله، وسيأفل نجمي مع أفول نجمك. لقد كتب الله كتاب حياتي وسيتم كل شيء كما كتب.

ضمني إليه بحنان حذر، وكأنه يخشى أن يتلفني. كان الموت ينذر بالشؤم ويترصد الفراش بمداعباته الأليمة منتظراً اللحظة الحاسمة ليضرب ضربته القاضية.



# 24

كانت الأيام متشابهة في نظري لم أعد أشعر بتقلّب الفصول، لأني أيقنت أني أختطف كل فجر جديد من الأزلية. كانت بشرتي البيضاء يحول لونها يوماً بعد يوم تحت كثافة المساحيق، لأني رغبت في أن أحافظ على مسحة جمالي، وحتى وأنا أعاني سكرات الموت. كنت أسهر حتى وقت متأخر لأنعم النظر في شروق الشمس على حلب الشهباء وحدائقها المزدانة بالورود العطرة. أحببت هذه القشعريرة المؤثرة التي تنتابني في جنح ظلام الليل، حين يخترق الأذان ظلمة السماء معلناً أن الفجر أصبح على وشك البزوغ؛ أحببت أصداء آلاف المآذن الفضية المشرئبّة نحو السماء وهي تردّد ألحان الحمد والسلام. كنت أرى السطوح المنخفضة المتوانية مع ضوضاء الصباح، تشخص، وهي غير مكترثة، إلى القلعة التي تتوّج المدينة الغافية بإكليلها الأرجواني المذهّب. أحببت هذا الليل الذي يتلاشى، لأن الليل مزيج من الأحلام والذكريات: ذكريات ضائعة لطفولة بعيدة، من بيزنطة أرض أجدادي، لأن هذه العطور الكثيفة، وهذه الأصوات الوديعة وهذه الصلوات المتأمّلة ليست لي. ولكنها أصبحت جزءاً مني، وماهية حلمي، وتعلمت يوماً بعد يوم حبّها أكثر فأكثر. أفلت النجمة الأخيرة، فتأملتها بأسى مستسلم، وبكيت في صمت، لأنني لن أستمع، عما قريب، إلى أصوات الفجر ولا إلى أصوات المغرب.

كان سيف الدولة يكثر من عيادتي؛ كان يدرك أن النهاية قد اقتربت. وكان أحياناً يبقى بجواري، دون أن يتحدث تقريباً، وأحياناً أخرى، كان يروي لي ذكريات لا أعرفها عنه، وحكايات الوفاء والمودّة والكبرياء.

كان المتنبي، وهو أكثر شعرائه تألّقاً، قد هجر بلاطه وذهب يمتهن عبقرية ألفاظه، وفصاحة لغته، ليتملّق ألد أعداء مولاه، كافوراً الإخشيدي حاكم مصر. لقد أثار غيظ سيف الدولة بجشعه المفرط، وغادره وما زال متلهّفاً على المكاسب.

وذات مساء، حدّثني أميري البهيّ عن أخيه الأكبر، ناصر الدولة. وعن طفولتهما، وعن العرفان الذي يحمله له بين جنباته ولا سيما صلة الرحم التي تتجاوز كل ألوان الشقاق والجفاء. لقد منّ الأكبر على الأصغر أنّه أنشأه على التمكن من السلطة والشجاعة والموهبة. وروى سيف الدولة بكثير من التؤدة أنه استقبل في حلب ناصر الدولة مستنجداً به عندما قصد معزّ الدولة الموصل، واختار له عن قصد سريراً أرفع من سريره لأنه رغب في أن يراعي التزامات الأصغر نحو عميد الأسرة.

كان صوت سيف الدولة، وهو يروي ذلك، يتهدّج من الغضب، وإن كان يريده متماسكاً. ففي اللحظة التي أراد فيها أن يتقدّم بتواضع ليقدّم خدماته لأخيه التي كان عليه أن يعفيه منها، تركه ناصر الدولة، كبير بني حمدان ينزع خفّيه أمام رجال بلاطه الواجمين، وراعى رغبة أخيه الأكبر المهينة. وعلى الرغم من أن أمير حلب تكبد من أخيه ألواناً أخرى من المذلّة، فقد دفعه وفاؤه إلى أن يقدّم لأخيه وحاشيته الثياب الفاخرة والجواهر بما قيمته ثلاثمائة ألف دينار. ونظم قصيدة يسجل فيها تعلّقه بأخيه يقول فيها:

**رضيت لك العليا وقد كنت أهلها … وقلت لهم بيني وبين أخي فرقُ**
**ولم يكُ بي عنها نكولٌ وإنّما … تجافيت عن حقّي فتمّ لك الحقُّ**
**ولابدّ لي من أن أكون مصلّياً … إذا كنت أرضى أن يكون لك السبقُ**

ـــ الوفاء، يا ياسمين، ينطلق من الصدق الذي يحمله المرء في نفسه وتجاه نفسه. ولو تنكّرت لأخي، لتنكّرت لقومي، وهكذا يموت الرجل في الصحراء. وفي هذه الحال أقول: تبّاً لكبريائي. وبمقدار ما ألعب هذا الدور، ألعب الدور الآخر.

وفي أمسيات أخرى، كان يُجمل أحداث حياته لي، كان يعترف بأخطائه، وخصوصياته، ومشاكله:

ـــ إن قصر الحلبة هو خارج نطاق أسوار حلب، لأني غريب، هنا. إنهم يحبونني ولكنني أبقى منتمياً إلى بلاد الرافدين أكثر من انتمائي إلى بلاد الشام. كثيراً ما أمعنت النظر بالبادية وما وراءها من فيافي وجبال في الشرق. غاب البحر عن ذهني، وكذلك بيزنطة الخالدة: تبقى بيزنطة أعظم إمبرطوريات العالم برّاً وبحراً. ومع الأسف لم أدرك إلا مؤخراً دور البحر الحيوي، فقد أهملت، على مدى الزمن، تشكيل الأسطول.

ومرت الأمسيات الحزينة، الأمسيات الحانية، أمسيات التفاهم، أمسيات القلق، الأمسيات الهادئة، الأمسيات البطيئة، الأمسيات العابرة؛ كانت تهبط كل أمسية مع ورود

بيضاء من بلاد العرب ، وورود ليلكية من شيراز ، وورود ذهبية من بغداد ، وورود حمراء ضرّجها الحب ، وورود على أهبة التفتح فجراً ثم تموت .

متى ستحلّ الأمسية الأخيرة؟

ــ ياسمين ، هذه هدية لك ، أحضرها لي صائغ من دمشق ، إنها قرطان لأذنيك .

كانتا قفصين ذهبيين ، تطير فيهما عصافير متعددة الألوان ، مربوطة بسلاسل رفيعة ، وكان أسفل القفص مفتوحاً سهواً .

كان جفناي يزدادان تثاقلاً ، ولكن ، لعل المرض سيحرمني مرة أخرى من الرقاد .

نظرت إلى سيف الدولة بأسى ، وحنان ؛ ما أشدّ حبّي له وتمتمت :

ــ نوماً هنيئاً ، يا حبيبي !

ــ ليحمل إليك الفجر سلام الله !

وكان سلام الله ، هو سلام الربّ .



# خاتمة

كان الحجّاب في قديم الزمان يعيشون هنا برفاه
وبهجة وأبّهة ، وفي كل مكان كانت تمتد الأغطية
من الحرير والديباج . وأسفاه من سيحدثني الآن
عن مصير السادة الذين كانوا يقطنون هنا .

**« ألف ليلة وليلة »**

تمّ اللقاء فعلاً بين هذا الرجل وهذه المرأة ، منذ أكثر من عشرة قرون ، من خلال مغامرة في الحياة والحرب والحب . شرب كل منهما كأس قدره حتى الثمالة ، هو الذي أيقن أنه يتحدّاه ، وهي المفعمة بالسعادة بالاستسلام إليه . وعلى الرغم من اختلاف ثقافتيهما ، وتقاليدهما ، ودينهما ، فقد التقيا ليتّحدا ويتبادلا الحب . وكان ذلك قبل قرن من ظهور شعراء التروبادور في جنوبي فرنسا . كان يتغنّى بفتاته ويهيم بها ، وكانت تتلهف إلى لقياه ، كما عاش في لهفته عليها من قبل . كانت في نظره ، وهو فتى بني حمدان الوسيم ، والدرّة الفريدة في عقدهم ، بالإضافة إلى أنوثتها الطاهرة ، وحسنها الذي لا يُضاهى ، تمثّل الطمأنينة التي كان يحرص على حمايتها لأنها رخصة العود صافية ، والمشاركة الوجدانية المتجددة باستمرار فمعين عطائها وتشجيعها لا ينضب .

لقد اقتحمت هذه المرأة حياة سيف الدولة ، ولكن لعلّي وددت أن أزيّن الدور الذي قام به لأحافظ على قسط مما هو خارق ورائع لدى الرجل الذي كان عشقه الهائم وعنفه القاسي يتدافعان نحو توازن متكافئ . لا أدري ، إذا كنت من خلال سرد زمني للوقائع ، بلغت أثمن ما في بطل روايتي ، الكامن في أعماق كينونته ، ولم يكن من الوفاء التوقف في رواية حياته عند هذا الحدّ ، فالرجل الهابط من عليائه هو أيضاً يثير الألم فهو المحطّم الذي يبقى ذلك الشهم المستنفد ، الذي ينزف بلا حساب .

إذا كانت المرأة، بموتها، تركت الأمير يواجه عزلة أكبر وأشدّ أسى، فلأنها كانت، دون أن تدري، النجم الأخير الذي يسطع في فلكه، نجم السعادة الذي كان على وشك الأفول.

خلال عشرين سنة، كان سيف الدولة يخوض حرباً متألقة ضروساً ضد بيزنطة المنيعة، وكان يدافع عن حدود دولته ضد أعتى قادة جيوش الروم، كان يجسّد في معاركه، الصاعقة بطل الجهاد الحقيقي والوحيد. طاف بجرأته وإقدامه وحماسه آسيا على متن خيوله العملاقة ولم يتوقف إلا في محطّات الشعر والحبّ. كان يدفعه غنى نفسه المتألق، وغريزة المحارب في قلبه، وحسّه الأدبي، وشهامته إلى الاعتقاد الكلّي بالبركة التي أسبغها الله عليه، حتى في سويعات المحنة حين تقلبت عليه صروف الدهر.

في عام ٩٦١ الموافق للعام ٣٥٠ للهجرة، ظهرت من جديد جيوش الروم خلال إحدى أشد حملاتهم في الجزء الشرقي من كيليكيا، وسرعان ما وقعت القصور القائمة على الجبال في أيديهم، واجتاح الهلع السكان الذين كانت تقوم هذه الحشود المجتاحة بذبحهم. ولكن نقفور فوكاس لم يكتف بذلك، كان يود مواجهةً شخصيةً مع الحمداني في عقر داره وفي عاصمته التي اختار أن يلاقيه بها. وبوغت سيف الدولة بهذا الغزو وسط الشتاء. كان لدى الروم ثلاثون ألفاً من الفرسان، وأربعون ألفاً من المشاة. ونفذ نقفور فوكاس ومساعده الأول وابن أخته يانس بن شمشقيق إلى سهول سورية الرحبة لبلوغ حلب الشهباء، بأسوارها الذهبية.

أراد الأمير الاندفاع نحو جبال الأمانوس ليدافع عن ممراتها، ولكن عيونه أخطأوا، مع الأسف، إذ بقي الطريق الذي سلكه فوكاس مجهولاً حتى اللحظة الأخيرة، وسقطت المدن التي اكتسحتها جائحة الدمار والموت.

حينئذ اتجه سيف الدولة نحو الشمال ليتصدّى للعدو، ولكنه اضطر إلى العودة على أعقابه حين رأى مدى قوة الروم الهائلة. عاد وهو يترقب ساعة الحسم. وكان سبب الهزيمة هو خطأ الأمير في حرمانه نفسه من الشطر الأعظم لجيشه، الذي وضعه تحت إمرة غلامه نجا الذي كان عليه مهاجمة مؤخرة الجيش الغازي.

أخذ سيف الدولة يُعدّ حلب للدفاع عن نفسها. وكان عبيد، وهو الأشد ولاء لسيف الدولة، يقود حامية القلعة، واستعد سكان حلب بأسرهم، معتمدين على بطولة مولاهم. كانوا يودّون أن يثبتوا بوفائهم المطلق، الذي لا يريدون من ورائه جزاءً ولا شكوراً، عرفانهم لسيف الدولة وطاعتهم لله.

ومن شمالي المدينة ، أخذ سيف الدولة يمعن النظر في حلب الشهباء وحدائقها التي تفوح بأريج السعادة ، ونهر قويق ذي البريق الفضي ، وساحاتها الآمنة التي تعيش على هواها ، وتلك القلعة الشامخة المنيعة منذ غابر الأزمان ، اللامبالية بكل الغزاة ، معقل العزّة بفجرها الأرجواني الدامي ، وغروبها الداكن الحزين ، حلب بمآذنها الممشوقة المشرفة على الأسوار وأبوابها بعظمة زهدها ، حلب بأيام سعادتها وصوت منشديها ، حلب التي كانت تعيش في ذلك المساء تتلاعب في أجوائها الرياح والأمطار .

كانت خطة المعركة بسيطة ، أقام سيف الدولة معسكره على شاطئ النهر لمواجهة العدو ، بينما كان على نجا أن يطارد مؤخرته .

لدى ظهور طليعة جيش الروم المكتسية بالدروع في ضواحي حلب ، سقطوا جميعاً بين قتيل وجريح ، وذهبت المياه بالعديد من جثثهم الدامية . وشعر الحمداني بالأمان لأنه كان على ثقة بمناورة نجا . ولكن ويا للأسف ، آثر العبد المُعتق والغلام المدلل ، والصديق الحميم ، عدم التدخل ، على أمل أن يحظى بمنصب مولاه وصاحب الفضل عليه .

كان الموقف يبعث على اليأس . ولكن سيف الدولة قاتل ببسالة في هذه المعركة الأخيرة ، والشجاعة التي يتطلبها البقاء على قيد الحياة . لم يكن معه سوى نفر قليل من الرجال ، وجيش الروم يسرح في كل الأنحاء ويسري كأنه لهيب النار . وكان ابن شمشقيق يقترب منه أكثر فأكثر ، كان يريده حيّاً ، ليحظى بأحلى غنيمة . فما كان من الأسد المهزوم ، الذي أنهكه اليأس إلا أن ابتعد عن المعركة يتبعه بعض الرجال لتغطية انسحابه .

بيد أن ابن شمشقيق لاحق سيف الدولة حتى أصبح على مقربة منه . وخطرت في ذهن الحمداني باديته الوفية ليتخلص بسهولة من القائد الرومي فتوجه بمطيّته نحو تلك الرمال الذهبية ، أخلص أصدقائه ، نحو قِنّسرين ليرقب ما تخبئه الأحداث .

كانت قِنّسرين مغطّاة بطبقة كثيفة من الضباب . والتجأ الفرسان إلى خان مهجور للقوافل . وكان سيّان لدى سيف الدولة الذي اعتاد على حياة الخيام افتراش الحرير أو الأرض اليابسة ، فبكى في صمت ، وأنعم النظر في أصدقائه المرهقين الباقين على ولائهم ، وقال لهم :

ـــ لم يعد لي من كنوز سوى أصدقائي .

لم يكن بوسع سيف الدولة التفكير بخيانة نجا ، وكان يأمل في مناورته المنقذة للموقف ، كان يشعر بالمرارة وهو ينتظر ، وقد رأى صحبه يتساقطون ، ومدينته محاصرة ، وجيشه يفنى .

وأقبل الفرسان يقبّلون يديه ، أما هو ، وقد شعر بالتعب والإرهاق ، فقد استسلم لنعاس يجدد نشاطه . وأحاط الليل الأمير بالكوابيس ، وتصاعد عن بعد أنين الصحراء الخامدة التي كانت تهرب من الليل لتعلن بزوغ الفجر ، وعاد النور الوردي من جديد ، فأدرك سيف الدولة أن نجا قد غدر به .

كان نجا يبتعد متجهاً نحو أنطاكية .

في شمالي حلب قُتل العديد من جند سيف الدولة ، الذين حُرموا من قائدهم ، أمام باب اليهود ، وهلك أكثرهم على مقربة من الأسوار دون أن يتمكنوا من اللجوء إلى داخل المدينة .

وبينما كان الأمير يفكر يائساً بعاصمته الجميلة وقصره الحافل بالكنوز ، كان نقفور فوكاس يستقبل وفداً من شيوخ حلب يرغبون في التفاوض ليتجنبوا حصاراً شرساً وإهراقاً للدماء . وأبدى دمستق المشرق ، ذو البشرة السمراء ، وبقامته القصيرة البدينة ، فوق ساقين متناهيتين في القِصَر ، استخفافه ، وهو الماكر الذي لا يرعى ذمةً ولا عهداً . ومن أجل إنقاذ حلب ، طالب بتسليم ثلاثة آلاف فتى وفتاة ، ومبلغاً هائلاً من المال ، والعديد من السلع .

عاد الوفد إلى حلب ، واستخدم هؤلاء الشيوخ الوقورون والمستاؤون حكمتهم لاستجابة السكان . وكانت المهلة المحددة تنتهي في اليوم التالي ، ولكن في تلك الليلة ، نكث نقفور فوكاس بعهده ، وأسرع بأعمال الحصار ، واقتربت عدّة الحرب حتى أصبحت في أسفل الأسوار ، وانطلق الهجوم . وسقط الروم تحت وابل من الرماح والسهام ، والزيت والقار المغليين ، ولم توفّر الحرب الدموع ولا الدماء .

قاتل الرجال ببسالة واضحة ، ولكن المدينة كانت ، ويا للأسف ، بلا قيادة ، والاضطراب يخلق الفوضى . وأخذت العصابات والمرتزقة ينهبون السكان . وتخلى أهل حلب ، وقد انتابهم القلق عن مواقعهم في المعركة ليعودوا إلى منازلهم ويحموا أملاكهم .

كان العدو ، الذي على الأبواب يترصد أدنى إشارة ، فانتهز فرصة البلبلة ليتسلق الأسوار التي بقيت دون حماية وتمكن المهاجمون المتسللون من فتح أبواب المدينة على مصاريعها ، ودخل جيش الروم ليرتكب المجازر وأعمال السلب والنهب .

وكان سيف الدولة ، قبل أن يغادر حلب ، قد حشد ألفاً من الأسرى بقصد التبادل مع الروم بهم . وكانوا أول من أطلق الصيحات المريضة لدى استقبالهم المهاجمين .

أما قصر الحلبة، بكنوزه التي تراكمت خلال عشرين سنة، الذي كان يُعدّ تحفة حقيقية في عالم العمارة، ذلك القصر الحافل بالشعر والحب، فقد تم نهبه خلال ساعات، وكانت الغنيمة أعظم من أن توصف. فمن الفضة فقط وجدوا أربعة ملايين درهم. وفي الاصطبلات، تدافعت خيول نجد، والجياد العربية الأصيلة، والبغال، بالآلاف، بالإضافة إلى ألفين من الإبل. ولما كان القصر قلعة حصينة، فقد تم اكتشاف أكداس هائلة من الأسلحة وآلة الحرب، والدروع، التي كانت ستة آلاف منها من الزرد. تمّ نهب الآنية الذهبية والفضية، وما لا يحصى من السجّاد والأثاث الفاخر وأحجار النرد الكريمة السوداء البرّاقة، وثلاثمائة شحنة من نسيج الحرير، وثلاثمائة أخرى من نسيج الكتّان. ولكن نقفور فوكاس، لم يكتف بذلك، بل أمر باقتلاع زخارف الخزف المذهّبة التي كانت تغطّي السقوف، كما أمر بإحراق قصر الأمير، لتحيل ألسنة اللهب الليل إلى نهار من وميضها الحقود.

تمّ ذبح جميع سكان حلب ما عدا عشرة آلاف فتى وفتاة، أخذوهم للأسر والسبي، ونهبوا الكثير أيضاً لأن المدينة كانت تعيش في رخاء. أما الخيرات التي لم يستطيعوا أخذها معهم، لعدم كفاية وسائط النقل، فقد أحرقوها. وصبّوا الماء في خزّانات الزيت التي طافت، وأحرقوا القسم الأكبر من المدينة.

ولم يكن يعلو على صوت زفير النار سوى قهقهات الجنود العتاة من جبال اللكام والقبق وإيزوريا الذين كانوا يثأرون لعشرين سنة من الهزيمة والمهانة.

وفيما عدا الدمار القاسي، والزفير الجهنّمي، والموت الشنيع، كانت القلعة المنيعة والتي لم يقترب أحد منها ما تزال تحمل العلم الخفّاق لسيف الدولة. كان يحمي القلعة جماعة من الديلم، وكانت تضم بين جدرانها من بقي من المؤمنين — من وجهاء وهاشميين وكتبة — وكانت الريح الملائمة تدفع بعيداً عنهم سحب النيران والدمار السوداء.

ومع ذلك فإن موقعها الاستراتيجي على قمة رابية، لم يشجع المهاجمين. ولكن ابن أخت نقفور فوكاس، الأمير تيودور، وهو شاب متهور، زعم أنه يستطيع أن يزحف إليها مع بعض الأشدّاء من جيش الروم. وكان السور قد تم إصلاحه على جناح السرعة بواسطة أقتاب الإبل والخيل. ولكن الروم أقاموا حصاراً حسب الأصول لم يصل إلى نهايته.

لم يكن هناك ما يؤدي إلى قمة الرابية سوى شعب متعرج ضيّق. ووصل تيودور ورجاله حتى نهايته، وبينما كان يلتفت ليحثّ مرافقيه، انفتح الباب، وانهمر عليه وابل من الحجارة، جرحته جرحاً مميتاً.

دفعت صيحات الفرح الصادرة عن المعتصمين بالقلعة والألم الناجم عن فقدان ابن أخته ، بفوكاس إلى ارتكاب أشنع أنواع الوحشية المنقطعة النظير : جعل جميع الأسرى الحلبيين الذي بلغ عددهم عشرة آلاف يجثون على ركبهم في صفوف متراصّة ، وقام بقطع رؤوسهم جميعاً على مرأى ومسمع من الحامية الديلمية التي أصابها الذعر ، والتي بقيت تدافع عن القلعة .

تم الاستيلاء على حلب في كانون الأول من عام ٩٦٢ ميلادية الموافق لشهر ذي القعدة من عام ٣٥١ هجرية .

ولأسباب بقيت في طي الكتمان ولا يمكن تفسيرها ، لم يعد نقفور إلى محاولة الاستمرار في حصار القلعة ، وغادر العاصمة ، ولعل ذلك كان لأسباب متعلقة بالتموين . وسار بما معه ولم يعرض لسواد حلب والقرى التي حولها وقال : « هذا البلد قد صار لنا ، فلا تقصّروا في عمارته وازرعوا ؛ فإنا بعد قليل نعود إليكم » .

وأخيراً عاد سيف الدولة إلى مدينته المحروقة السليبة ، وعلى ركام الرماد والدمار الشامل ، بدأ يجدّد عمارة حلب بإسكان أهل قنّسرين الذين كانوا قد لجؤوا إلى الجزيرة ، مرفأ الأمان ، لدى اقتراب جيوش الروم . ولكن نهاية الإمارة كانت قد أزفت ، فالجيش كان في غاية الضعف ، والثروة كانت في الحضيض . وهكذا لم يحاول سيف الدولة تجديد عمارة قصره الذهبي ذي الزخارف المضيئة ، واكتفى ببعض الإصلاحات الأكثر إلحاحاً بفضل المساعدة المادية التي منحته إياها أخته خولة ، والتي بلغت مائة ألف دينار ليعيد إعمار العاصمة .

ولكن ، وا حسرتاه ! لقد نالت الهموم المتراكمة ، وسوء الحظ من بنيته الصلبة : سقط الفارس الذي كان يتلاعب بالرمح والسيف بمهارة أخّاذة ، والذي كان يذرع الصحراء والفيافي والجبال على جواده العملاق ، يسابق الرياح ، فجأة وقد أضناه المرض ، واجتاحه الشلل ببطء ، وداهمه الألم الشديد في قدميه ويديه ، ولكن لم تفارقه إرادة الحياة .

أما نجا ، غلام سيف الدولة ، الذي كان قد عُيّن من قبل والياً على خليات على بحيرة وان ، فقد رغب أن ينتهز الفرصة حين علم أن سيّده كان طريح الفراش وعاجزاً عن القتال ، فمنذ أمد بعيد كان يترعرع في نفسه أمل في أن تكون له حكومة مستقلة . لقد أراد هذا الخائن ، دون أن يردعه أي ضمير ، أن يجهز على الأسد الجريح الذي محضه خالص كرمه .

حتى ذلك الحين ، بقي نجا قوياً بجيشه ، ورغبة منه في الحصول على المواد اللازمة لإغراء رجال سيف الدولة بالانضمام إليه ، انطلق يطلب الجزية على نحو بشع من سكان

حرّان المعروفين بثرائهم، وحصل منهم على غرامة مقدارها مليون درهم خلال خمسة أيام. وبعد أن اغتنى بالغنائم والمتطوعين، أعلن عن تمرّده وتوجّه نحو ميّافارقين، آملاً في أسر الابن البكر لسيف الدولة، أبي المعالي، ولي عهد إمارة بني حمدان. بيد أن زوجة الأمير، الحازمة الآمرة الناهية عملت على إغلاق أبواب المدينة وحرّمت دخولها على المتمرد وعساكره. كانت ميّافارقين تتمتع على وجه الخصوص بالمنعة، بفضل ما قام به سيف الدولة من أعمال لحمايتها ضد تسلل الروم. وسرعان ما سئم نجا من الانتظار. ومن جهة أخرى قامت فتنة في أرمينيا، لعلها كانت بتحريض من سيف الدولة، جعلته يفك الحصار ليتجه نحو الشمال. حينئذٍ أدرك الأمير المستضعف العليل حقّه وعزم على استئناف القتال. وقرر أن يتم حمله على رأس قوّاته إلى ميافارقين، وجازف بالذهاب إلى أبعد من ذلك لإعادة فتح المواقع الأرمنية، وشاءت الظروف أن يلتقي السيد والعبد؛ وكان نجا على برج، فوقف سيف الدولة تحته، ونادى الأميرُ، وقد أعياه هذا السباق الذي لا نهاية له، غلامَه الجاحد بذلك الصوت الذي يألفه نجا، فأجاب الخائن الحائر: «لبّيك مولاي». وأمره سيف الدولة: «انزل!» فأطاع الرجل، كما كان يفعل منذ البداية، حين كان عبداً! لم تصدر عن سيف الدولة أية كلمة عتاب، ولا أية عودة إلى الماضي، ذلك أن المتمرد بقي هو الأثير، والغلام الأعز شأناً، والصديق فوق كل ذلك. ولم تمض برهة حتى قُتل نجا على يد غلمان سيف الدولة، بتحريض من زوجته التي لم تنس العبارات المهينة ولا حصار ميّافارقين — وبكى الأمير.

لم يكن نجا هو المتمرد الوحيد. فقد حاول العديد من الآخرين الغدر بالأسد الجريح، الذي كان يشتد عليه المرض. واستمر الروم بالتجوال في أنحاء الإمارة يزرعون الخراب والموت في كل مكان. وحاول سيف الدولة بوفائه لرفاقه ولما يعتلج في نفسه من شهامة ونبل الافتداء الأخير للأسرى في سميساط على نهر الفرات؛ وتم تبادل كل رومي بعربي، وبقي ثلاثة آلاف أسير ينتظرون الافتداء. ودفع سيف الدولة مبلغاً جسيماً مقداره أربعون ألف قطعة ذهبية؛ وبقي المزيد من الأسرى، فبذل الأمير سيف الدولة منتهى السخاء، مما بهر بيزنطة في أبهة بلاطها، فقد باع عباءته الرائعة المطرزة كلها بالأحجار الكريمة ليفتدي سائر محاربيه الأشاوس.

بعد تحرير جماهير الأسرى، ومن جملتهم الشاعر أبو فراس الحمداني ابن عم الأمير، اتجهوا إلى حلب وهم ينشدون القصائد في مديح أميرهم. كانت الخزائن خاوية على عروشها، وفي الأفق الرمادي تلوح بوادر غزوات جديدة خبيثة، ولكن لم يكن في قلب الأمير، الذي كان الموت يترصّده سوى الرغبة الصافية بسعادة الآخرين. ما كان أشدّ فرح

الرجل المرهق برؤية الأسرى يجددون اللقاء بأهلهم، الذين فقدوا أملهم ببقائهم على قيد الحياة، بينما كانوا يعانون الأمرّين في سجون بيزنطة.

استمر فرسان الروم المدرّعون يحرثون أرض حلب بسنابك خيلهم، وهم يقودون أهلها إلى الرقّ والنفي. وكانت حال الألم المتزايد الذي يعانيه سيف الدولة الحمداني تستنفد أواخر مقاومته الجسدية. وزاد في تصعيد ألمه ذلك الخنّاق الذي يشتد ضغطه عليه. وانكمشت يده اليمنى على نفسها بعد أن وهنت، وفقدت حركتها، بعد أن كانت تهدد أعظم قوة في العالم. وحلّت الخيانة في الزمان المرّ محل الوفاء في أيام السعادة، وأشرق نجم الروم في الأعالي، بينما كان احتضار الأمير يطول بلا رحمة. لم يكن الماضي المتألق سوى ذكرى سحيقة، ربما ضاعت في طيّات معاناة الموت البطيء. ما أروع أن يمر في اللحظات الأخيرة من الحياة خلال الذاكرة المتعبة وميض عابر يتمثل في ذكرى المرأة التي سطعت كأنها نجمة ذهبية، جلبت معها البركة إلى سماء حياته التي انطفأت بانطفائها.

كان الحمداني يحتضر، والروم يحرقون كل المدن التي أحبّها ودافع عن حماها. حملوه على محفة وجعلوه يغادر حلب ليلجأ إلى شيزر على نهر العاصي، ولكن حين دُقّ ناقوس القدر، قام فارس الإسلام الشامخ برهانه الأخير مع الموت؛ وبدأ يصارع مرة أخرى، تلك المرة الحاسمة، من أجل أن يموت هناك حيث اختار الحياة من قبل، هناك حيث تألّق حلمه الكسير، هناك في حلب الشهباء. ويعود الأمير العاجز عن الحركة إلى مدينته. ومن بعيد، كانت القلعة الكئيبة، التي اصطبغت بلون المغيب، تحدد له البعد، والنهار يتلاشى. وينفرج الجفنان المطبقان، وتبدو العينان المرهقتان المحمرتان من الانفعال، وتشخصان إلى الأفق البعيد، وتفترّ الشفتان عن ابتسامة خفيفة، ودون أن يلفظ كلمة، أشرق الوجه إشراقة خشوع الموت، خشوع راحته الأبدية. كان وسيماً. مات الأمير سيف الدولة في الثانية والخمسين من عمره. تجرّع كأس الحياة حتى الثمالة بحلوها ومرّها، كان فارس الإسلام المقدام، والأمير الشهم، والإنسان النبيل.

عمّ الأنين والنحيب والألم كل العرب الأوفياء. وتكريماً لمولاهم الورع، أرادوا تنفيذ رغبته الأخيرة ودفنه في تلك المدينة الغالية أيضاً على قلبه، في ميّافارقين، في مقبرة الحمدانيين، تربة آبائه.

كانت المسيرة طويلة وصعبة في بلاد تفتك الحرب بها. كان عليهم عبور الفرات ثم الدجلة، ولكن ما من شيء يحول دون إرادة هؤلاء المسلمين الأجلّاء.

ضُمّخ جثمان الأمير بالطيب، وأُسند رأسُه إلى آجرة مجبولة من العفار والعرق انتزعها مكشط المدلّك من جلده مساء المعركة، قبل الاغتسال، وكانت هذه الآجرة شاهداً على جميع انتصاراته وآلامه.

كان الموكب الجنائزي يضم الأصدقاء الأوفياء الذين كانوا يتناوبون حمل الأمير على امتداد ركبه. وكان الحرس يحيطون به، والدراويش ينوحون، والمنشدون يرددون أدعية الموت، والعبيد والخدم والجنود يبكونه، يتقدمهم جميعاً قادة الحرس في موكب مهيب حزين.

اجتازت المسيرة البطيئة البيداء الواسعة، والفيافي الرحبة، والجبال الشاسعة، هناك حيث كان محارب مقدام يسابق الرياح بحميته، ويقف العالم متسمّراً أمام شاعريته.

تعرّفت الصحراء على سيّدها، وأخذت تنوح بأنينها الليلي. ورأت إحدى كتائب الروم الاستطلاعية الموكب يتلاشى في المسافات بلا نهاية. فوقف الخيالة المدرّعون وقفة صمت وحِداد، فالعدو مات حقّاً، ولكن هذا العدو كان رجلاً عظيماً.

لدى وصول الحمداني الأبيّ إلى تربة آبائه، سطع نور من صحيفة سحرية أضاء الجثمان، وانعكس نور ربّاني شاحب على الوجه المعطّر. انبثق الفجر، وانضم الأمير سيف الدولة إلى ضريح ميّافارقين. لقد طاف، وهو ميت، كل الأراضي التي فتحها، من المغرب حتى المشرق، ليستقر في عالم الخلود، هناك، حيث تشرق الشمس.





## مرثاة على شاهدة

ومرّت نشوة المتعة كأنها هذيان الحمّى
كم تأملت عيناي أحداثاً لم تخطر حتى في الخيال
وكم أسبغت على شهرتي من أكاليل المجد
وكم من عواصم ردّدت أصداء سنابك خيلي
ومدن أصبحت يباباً من اندفاع لهيب رياحي
وممالك تهاوت أمام صواعق نقمتي
وأمراء جرّروا أذيالهم خلف ركبي
وشرائع فرضتها على الملأ
ومرّت نشوة متعتي كأنها هذيان الحمّى
ومضت كالزبد يتلاشى فوق الرمال
وتخاطفتني المنون على حين غرّة، دون أن يصدّها جبروتي
لم يفدني في الدفاع خلّان ولا جحافل
فتأمل يابن السبيل، هذه العبارات التي لم تلفظها شفتاي في حياتي:
صن حياتك، وتمتع برغد العيش الهنيء، وجمال الحياة، فغداً سيخطفك الموت
وستجيب الأرض من يناديك: «لقد مات، ولن يلفظ ترابي ما ابتلعته، حتى يوم الحساب».



الحبيبة المفضلة : أسيرة سيف الدولة الرومية / ميريام أنطاكي ؛ ترجمة هشام حداد . ـ دمشق : دار طلاس ، ٢٠٠٠ . ـ ١٢٠ ص ؛ ٢٤سم.

١ ـ ٨٤٣ أ ن ط ح ٢ ـ العنوان ٣ ـ أنطاكي
٤ ـ حداد

**مكتبة الأسد**

رقم الايداع : ٢٠٠٠/٦/١٠٧٧ رقم الإصدار ٨٢٠

رقـــم:٤٧٨٣٨
تاريخ: ٢٠٠٠/٦/٢٢



## هذا الكتاب

تم اللقاء فعلاً بين هذا الرجل وتلك المرأة، منذ ما يزيد عن عشرة قرون، ومن خلال مغامرة في الحياة والحرب والحب، شرب كل منهما كأس قدره حتى الثمالة، هو الذي أيقن أنه يتحدَى هذا القدر وهي المفعمة بالسعادة والاستسلام إليه، وعلى الرغم من اختلاف الثقافة والتقاليد والدين، فقد التقيا وتبادلا الحب، كان يتغنى بفتاته ويهيم بها، وكانت تتلهف إلى لقياه. إنه فتى بني حمدان الوسيم، الأمير العربي سيف الدولة، وهي أسيرته، الأميرة الرومية الرائعة الحسن، الطاهرة الأنوثة، الرخصة العود، التي أسرته بمعين عطائها وتشجيعها، واقتحمت حياته.

هذا ما أرادت ميريام أنطاكي أن تعبّر عنه في هذه الرواية التي عرضت وقائع حياة سيف الدولة ومعاركه دون أن تنسى الدخول إلى صميم إحساسه وتفكيره، وعبّرت الترجمة التي قام بها هشام حداد بأسلوب شاعري عن العذوبة التي أرادت الكاتبة أن تضيفها على هذا اللقاء الفريد.

